كتاب الأدب

٨٤ـ باب الحياء وفضله والحثّ على التخلّق به

١/ ٦٨١ ـ عنِ ابْنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أخَاهُ في الحَيَاءِ، فَقَالَ رسُولُ الله ﷺ: «دَعْهُ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإيمانِ» متفقٌ عليه[1].

٢/ ٦٨٢ ـ وعن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحَياءُ لا يَأتي إلا بخَيْرٍ» متفقٌ عليه[2].

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «الحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ» أوْ قَالَ: «الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ»[3].

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين: كتاب: الأدب، باب: الحياء وفضله والحث عليه.

الأدب: الأخلاق التي يتأدب بها الإنسان، وهي أنواع كثيرة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، رقم(١٢٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، رقم(٣٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، رقم(٦١١٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، رقم(٣٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، رقم(٣٧) [٦١].

منها: الكرم، والشجاعة، وطيب النفس، وانشراح الصدر، وطلاقة الوجه، وغير ذلك كثير.

فالأدب هو عبارة عن أخلاق يتخلق بها الإنسان يمدح عليها، ومنها الحياء.

والحياء صفة في النفس تحمل الإنسان على فعل ما يجمل ويزين، وترك ما يدنس ويشين، فتجده إذا فعل شيئًا يخالف المروءة؛ استحيا من الناس، وإذا فعل شيئًا محرمًا؛ استحيا من الله عزَّ وجلَّ، وإذا ترك واجبًا؛ استحيا من الله، وإذا ترك ما ينبغي فعله؛ استحيا من الناس.

فالحياء من الإيمان، ولهذا ذكر ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر برجل من الأنصار يعظ أخاه في الحياء، يعني أنه يحثه عليه ويرغبه فيه، فبيَّن النبي عليه الصلاة والسلام أن الحياء من الإيمان.

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم(٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، رقم(٣٥).

وإذا كان عند الإنسان حياء وجدته يمشي مشيًا مستقيمًا، ليس بالعجلة التي يذم عليها، وليس بالتماوت الذي يذم عليه أيضًا، كذلك إذا تكلم تجده لا يتكلم إلا بخير وبكلام طيب، وبأدب، وبأسلوب رفيع حسب ما يقدر عليه.

وإذا لم يكن حييًّا فإنه يفعل ما شاء، كما جاء في الحديث الصحيح: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[(١)].

وكان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها[(٢)].

العذراء: المرأة التي لم تتزوج، وعادتها أن تكون حيية، فالرسول عليه الصلاة والسلام أشدّ حياء من العذراء في خدرها، ولكنه لا يستحي من الحق، يتكلم بالحق ويصدع به ولا يبالي بأحد.

أما ما لا تضيع به الحقوق فإن النبي ﷺ كان أشد الناس حياءً عليه الصلاة والسلام. فعليك يا أخي باستعمال الحياء والأدب والتخلق بالأخلاق الطيبة التي تمدح عليها بين الناس، والله الموفق.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، رقم(٦١٢٠).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، رقم(٦١١٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، رقم(٢٣٢٠).

٣/٦٨٣ ـ وعن أبي هُريرة رضيَ الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمانُ بضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأفْضَلُهَا: قَوْلُ لا إله إلا اللهُ، وأدْنَاهَا: إمَاطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ» متفقٌ عليه[١].

«البِضْعُ»: بكسر الباءِ، ويجوز فتحها، وَهُوَ مِنَ الثَّلاثَةِ إِلى الْعَشَرَةِ «وَالشُّعْبَةُ»: القِطْعَةُ وَالخَصْلَةُ. «وَالإماطَةُ»: الإزَالَةُ. «والأذَى»: مَا يُؤذِي كَحَجَرٍ وَشَوْكٍ وَطينٍ وَرَمَادٍ وقَذَرٍ وَنحْوِ ذلكَ.

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى في كتاب رياض الصالحين فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة»**؛ شك من الراوي هل قال النبي ﷺ: **«بضع وسبعون»**، أو قال: **«بضع وستون»**؟ **«فأفضلها»** وفي لفظ: **«فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»** هذا هو الشاهد لهذا الباب؛ باب الحياء وفضله.

في هذا الحديث بيّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن الإيمان

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم(٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، رقم(٣٥).

شعب كثيرة؛ بضع وستون أو بضع وسبعون، ولم يبيّنها الرسول عليه الصلاة والسلام لأجل أن الإنسان يجتهد بنفسه ويتتبع نصوص الكتاب والسنة حتى يجمع هذه الشعب ويعمل بها، وهذا كثيرٌ أي أنه يكون في القرآن والسنة أشياء مبهمة يُبهمها الله ورسوله من أجل امتحان الخلق ليتبين الحريص من غير الحريص.

فمثلاً ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان أو في السبع الأواخر من رمضان، لكن لا يعلم أي ليلة هي، من أجل أن يحرص الناس على العمل في كل الليالي رجاء هذه الليلة، ولو عُلمت بعينها لاجتهد الناس في تلك الليلة وكسلوا عن بقية الليالي.

ومن ذلك ساعة الإجابة في يوم الجمعة «**فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه**»(١) هذه أيضًا مبهمة من أجل أن يحرص الناس على التحري والعمل.

كذلك في الليل، في كل ليلة ساعة إجابة لا يوافقها أحد يدعو الله سبحانه وتعالى إلا استجاب له.

كذلك أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «**أن لله تسعة وتسعين**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة، رقم(٩٣٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، رقم(٧٥٧).

اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة»[1] ولم يعدها، والحديث الوارد في سردها حديثٌ ضعيف، لا تقوم به حجة.

وعلى هذا فإن قول الرسول ﷺ هنا: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة»، ترك تعيينها من أجل أن نحرص نحن على تتبعها من الكتاب والسنة، حتى نجمع هذه الشعب، ثم نقوم بالعمل بها، وهذا من حكمة النبي ﷺ التي آتاها الله عزَّ وجلَّ له.

يقول الرسول ﷺ هذه الشعب: «أفضلها» و«أعلاها قول لا إله إلا الله» هذه الكلمة العظيمة لو وزنت بها السموات السبع والأرضون السبع وجميع المخلوقات لرجحت بهن؛ لأنها أعظم كلمة، وهي كلمة التوحيد التي إذا قالها الإنسان صار مسلمًا، وإذا استكبر عنها صار كافرًا، فهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر.

ولذلك كانت أعلى شعب الإيمان وأفضل شعب الإيمان: «لا إله إلا الله»؛ أي لا معبود حق إلا الله عزَّ وجلَّ، فكل المعبودات من دون الله، فإنها باطلة إلا الله وحده لا شريك له، فهو الحق كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد، رقم(٦٤١٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، بدون رقم.

والإيمان بهذا التوحيد العظيم ـ أنه لا معبود حق إلا الله ـ يتضمن الإيمان بأنه لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مدبر للخلق إلا الله، ولا يملك الضر والنفع إلا الله.

ويتضمن كذلك الإيمان بأسماء الله وصفاته إذ لا يُعبد إلا من عُلم أنه أهل للعبادة، ولا أهل للعبادة سوى الخالق عزَّ وجلَّ؛ لهذا كانت هذه الكلمة أعلى شعب الإيمان وأفضل شعب الإيمان، ومن خُتم له بها في الحياة الدنيا فإنه يكون من أهل الجنة، فإن «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة»[1]، نسأل الله أن يختم لنا ولكم بها إنه على كل شيء قدير.

«أعلاها قول لا إله إلا الله»، «وأدناها» يعني الشيء الهين «إماطة الأذى عن الطريق»؛ الأذى: ما يؤذي المارة من شوك، أو خرق، أو خشب، أو حجر أو غير ذلك، إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان، وهذا يدل على سعة الإيمان وأنه يشمل الأعمال كلها.

«والحياء شعبة من الإيمان»؛ الحياء انكسار يكون في القلب، وخجل لفعل ما لا يهتم به الناس، أو ما لا يستحسنه الناس. الحياء من الله، والحياء من الخلق من الإيمان. الحياء من الله يوجب للعبد أن يقوم بطاعة الله، وأن ينتهي عما نهى الله، والحياء من الناس

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الجنائز، باب في التلقين، رقم(٣١١٦).

يوجب للعبد أن يستعمل المروءة، وأن يفعل ما يجمله ويزينه عند الناس، ويتجنب ما يدنسه ويشينه، فالحياء من الإيمان.

وسئل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**»[1]، فإذا جمعت هذا الحديث إلى الحديث الآخر ـ يعني هذا الحديث الذي نتكلم عليه الآن، والحديث الآخر الإيمان أن تؤمن بالله ـ تبيَّن لك أن الإيمان كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة يشمل العقيدة، ويشمل القول، ويشمل الفعل؛ ويشمل عمل القلب عقيدة القلب وعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، أربعة.

«**لا إله إلا الله**» هي قول اللسان، «**إماطة الأذى عن الطريق**» عمل الجوارح، «**الحياء**» عمل القلب، «**الإيمان بالله وملائكته وكتبه**» اعتقاد القلب.

فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يتضمن كل هذه الأربعة: اعتقاد القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وأدلة ذلك من الكتاب والسنة كثيرة.

في هذا الحديث حث على إماطة الأذى عن الطريق؛ لأنه إذا كان من الإيمان فافعله؛ يزدد إيمانك، ويكمُل إيمانك، فإذا وجدت

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم(٨).

أذًى في الطريق؛ حجرًا أو زجاجًا أو شوكًا أو غير ذلك، فأزله فإن ذلك من الإيمان، حتى السيارة إذا جعلتها في وسط الطريق وضيقت على الناس فقد وضعت الأذى في طرق الناس، وإزالة ذلك من الإيمان، وإذا كان إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان، فوضع الأذى في الطريق من الخسران والعياذ بالله، ومن نقص الإيمان، ولذلك يجب أن يكون الإنسان حيَّ القلب، يشعر بشعور الناس.

تجد بعض الناس الآن يوقف السيارة في أي مكان بالطول أو بالعرض دون اهتمام سواءً كان المكان ضيقًا أو واسعًا. وليست هذه خصال المؤمن، بل إن المؤمن هو الذي يكون حيَّ القلب، يشعر بشعور الناس، يحب للناس ما يحب لنفسه، كيف تأتي مثلاً وتوقف سيارتك في عرض الطريق ولا تبالي أضيقت الطريق على الناس أم لم تضيقه؟!

أحيانًا يسدون الطريق، يقفون عند أبواب المساجد، ويكون الطريق ضيقًا، فإذا خرج الناس يوم الجمعة ضيقوا عليهم، هذا خطأ كبير، فإماطة الأذى عن الطريق صدقة.

فعلى هذا ينبغي للإنسان أن يقوم بإماطة الأذى عن الطريق، وإذا كان لا يستطيع ـ كما لو كانت أحجارًا كبيرة أو أكوامًا من الرمل أو ما أشبه ذلك ـ فليبلغ المسؤولين، ليبلغ البلدية مثلاً؛ لأنها

المسؤولة عن هذا، يبلغها حتى يكون ممن تعاونوا على البر والتقوى.

الحياء شعبة من الإيمان، فإذا كان الإنسان حييًا لا يتكلم بما يدنسه عند الناس، ولا يفعل ما يدنسه عند الناس؛ بل تجده وقورًا ساكنًا مطمئنًا، فهذا من علامة الإيمان. والله الموفق.

* * *

٤/٦٨٤ ـ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأى شَيئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ. متفقٌ عليه[١].

قال العلماء: حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق.

وروينا عن أبي القاسم الجنيد رحمه الله قال: الحياء رؤية الآلاء ـ أي النعم ـ ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى حياء.

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله في باب الحياء وفضله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ **«كان أشد حياءً من العذراء في خدرها»**.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم(٦١٠٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، رقم(٢٣٢٠).

العذراء: هي المرأة التي لم تتزوج وهي أشد النساء حياءً؛ لأنها لم تتزوج ولم تعاشر الرجال فتجدها حيية في خدرها، فرسول الله ﷺ أشدُّ حياءً منها، ولكنه ﷺ إذا رأى ما يكره عُرف ذلك في وجهه، يتغير وجهه، لكن يستحي عليه الصلاة والسلام.

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون حييًا لا يتخبط، ولا يفعل ما يخجل، ولا يفعل ما ينتقد عليه، ولكن إذا سمع ما يكره أو رأى ما يكره، فإنه يتأثر، وليس من الرجولة أن لا تتأثر بشيء؛ لأن الذي لا يتأثر بشيء يعني البليد الذي لا يحس، لكن تتأثر ويمنعك الحياء أن تفعل ما يُنكر، أو أن تقول ما يُنكر.

ثم إن الحياء لا يجوز أن يمنع الإنسان من السؤال عن دينه فيما يجب عليه؛ لأن ترك السؤال عن الدين فيما يجب ليس حياءً، ولكنه خور، فالله عزَّ وجلَّ لا يستحي من الحق.

قالت عائشة رضي الله عنها: «**نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين**»[1] فكانت المرأة تأتي تسأل النبي ﷺ عن الشيء الذي يستحي من ذكره الرجال، لكن باب الدين لابد أن يسأل الإنسان عن دينه ولا يستحيي.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض..، رقم(٣٣٢).

ولهذا لما جاء ماعز بن مالك رضي الله عنه إلى النبي عليه الصلاة والسلام جاء يُقر بالزنا يقول إنه زنى، فأعرض عنه النبي عليه الصلاة والسلام، ثم جاء ثانية وقال إنه زنى، فأعرض عنه، ثم جاء ثالثة وقال إنه زنى، فأعرض عنه النبي عليه الصلاة والسلام يريد أن يتوب فيتوب الله عليه.

فلما جاء الرابعة ناقشه النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**أبك جنون؟**» قال: لا يا رسول الله قال: «**أتدري ما الزنا؟**» قال: نعم، الزنا أن يأتي الرجل من المرأة حرامًا ما يأتي الرجل من زوجته حلالاً، فقال له: «**أنكتها**»[١]؛ لا يكني، صرح مع أن هذا مما يُستحى منه، لكن الحق لا يُستحى منه، قال له: «**أنكتها**» قال: نعم، قال: «**حتى غاب ذلك منك في ذلك منها. قال: نعم. قال: كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر؟**» قال: نعم[٢]. فهذا شيء يُستحى منه لكن في باب الحق لا تستحي.

جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ تسأله فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب هل يقول الإمام للمقر...، رقم(٦٨٢٤).
(٢) هذه رواية أبي داود، كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، رقم(٤٤٢٨).

احتلمت؟ قال: «نعم إذا هي رأت الماء»(١).

هذا السؤال ربما يخجل منه الرجل أن يسأله، ولا سيما في المجلس، لكن أم سليم لم يمنعها الحياء من أن تعرف دينها وتتفقه فيه.

وعلى هذا فالحياء الذي يمنع من السؤال عما يجب السؤال عنه حياء مذموم، ولا ينبغي أن نسميه حياءً؛ بل نقول إن هذا خور وجبن، وهو من الشيطان، فدينك اسأل عنه ولا تستح.

أما الأشياء التي لا تتعلق في الأمور الواجبة فالحياء خيرٌ من عدم الحياء، «وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»(٢).

ومما يجانب الحياء ما يفعله بعض الناس الآن في الأسواق من الكلام البذيء السيء، أو الأفعال السيئة أو ما أشبه ذلك، فلذلك يجب على الإنسان أن يكون حييًا إلا في أمرٍ يجب عليه معرفته فلا يستحي من الحق، والله الموفق.

* * *

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ...، رقم(٦٠٩١)، ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم(٣١٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، رقم(٦١٢٠).

٨٥ ـ بابُ حفظ السرِّ

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

١/٦٨٥ ـ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ أشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إلى المَرْأةِ وَتُفْضِي إلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا» رواه مسلم[1].

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله: باب حفظ السر.

السر هو ما يقع خفية بينك وبين صاحبك. ولا يحل لك أن تفضي هذا السر أو أن تبينه لأحد، سواء قال لك لا تبينه لأحد، أو عُلم بالقرينة الفعلية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد، أو عُلم بالقرينة الحالية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد.

مثال الأول: اللفظ؛ أن يحدثك بحديث ثم يقول: لا تخبر أحدًا، هو معك أمانة.

ومثال الثاني: أن يحدثك وهو في حال تحديثه إياك يلتفت؛

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم(١٤٣٧).

يخشى أحدًا يسمع؛ لأن معنى التفاته أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد.

ومثال الثالث: القرينة الحالية؛ أن يكون هذا الذي أخبرك به، أو حدثك به من الأمور التي يستحى من ذكرها أو يخشى من ذكرها أو ما أشبه ذلك، فلا يحل لك أن تبيّن وتبدي هذا السر.

ثم استدل المؤلف رحمه الله لذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ يعني إذا عاهدتم على شيء بلسان الحال أو بلسان المقال، فإنه يجب عليكم أن توفوا بالعهد، ومن العهود: الشروط التي تقع بين الناس في البيع والشراء، والإجارة والاستئجار والرهن وغير ذلك، فإن هذه الشروط من العهد.

وكذلك ما يجرى بين المسلمين والكفار من العهد، فإنه يجب على المسلمين أن يوفوا به.

والمعاهدون من الكفار، بيّن الله في سورة التوبة أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم لا يزالون يوفون بالعهد، فهؤلاء يجب أن نوفي بعهدهم.

وقسم ثانٍ نقضوا العهد، فهؤلاء لا عهد بيننا وبينهم؛ لأنهم نقضوا العهد، قال الله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣].

وقسم **ثالث** لم ينقضوا العهد ولم يتبين لنا أنهم سيستمرون في الوفاء به؛ بل نخاف منهم أن يخونوا وينقضوا العهد، فهؤلاء قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، يعني قل لهم: إنه لا عهد بيننا وبينكم حتى يكون الأمر صريحًا.

فالمهم أن جميع ما يشترط بين الناس فإنه من العهود، ومن ذلك التزام الموظفين بأداء عملهم، فإن الموظف قد التزم بالشروط التي تشترطها الحكومة على الموظفين؛ من الحضور في أول الدوام وعدم الخروج إلا بعد انتهاء الدوام، والنصح في العمل، وما أشبه ذلك مما هو معروف في ديوان الخدمة.

فالواجب الوفاء بهذه العهود وإلا فاترك الوظيفة وكن حرًّا فيما تعمل؛ لأن الوظيفة لم يلزموك بها؛ لكن أنت الذي أتيت وتوظفت، فيجب أن تلتزم بما تقتضيه شروط هذه الوظيفة من كل شيء، وإلا فدعها وكن حرًّا فيما تريد، ولا أحد يحاسبك إلا الله عزَّ وجلَّ.

ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة**» أشر: هذه لغة قليلة؛ لأن اللغة الكثيرة حذف الهمزة، فخير وشر الأكثر فيهما في اللغة حذف الهمزة، لا يُقال أخير ولا أشر إلا قليلاً، وإنما يُقال خير وشر. قال

الله تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ [مريم: ٧٥]، حَذَفَ الهمزة في خير وشر لكن يأتي ذكرها أحيانًا بناء على الأصل.

فهنا **«إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه»** يعني بذلك الزوجة **«فيصبح ينشر سرها»** أو هي أيضًا تصبح تنشر سره، فيقول فعلت في امرأتي البارحة كذا. فعلت كذا وفعلت كذا، والعياذ بالله، فالغائب كأنه يشاهد. كأنه بينهما في الفراش، والعياذ بالله، يخبره بالشيء السر الذي لا تحب الزوجة أن يطلع عليه أحد.

أو الزوجة كذلك تخبر النساء بأن زوجها يفعل بها كذا وكذا، وكل هذا حرام ولا يحل، وهو من شر الناس منزلة عند الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة.

فالواجب أن تحفظ الأمور السرية في البيوت وفي الفرش وفي غيرها؛ وألا يطلع عليها أحد أبدًا. فإن من حَفَظَ سر أخيه حفظ الله سره، والجزاء من جنس العمل، والله الموفق.

* * *

٤/٦٨٨ ـ وعن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: أَتَى عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ وأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي في حاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ على أمِّي. فَلَمَّا جِئْتُ قالت: مَا حَبَسَكَ؟ فقلتُ: بَعَثَني رسولُ الله ﷺ لحَاجَةٍ. قالت: مَا حَاجَتُهُ؟ قلتُ: إنَّهَا سِرٌّ: قالتْ : لا تُخْبِرَنَّ بِسِرِّ رسول الله ﷺ أحَدًا. قال أنَسٌ: وَالله لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أحَدًا لَحَدَّثْتُكَ بِهِ يَا ثَابِتُ. رواه مسلم[١]. وروى البخاري بَعْضَهُ مُخْتَصَرًا[٢].

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله تعالى في باب حفظ السر فيما نقله عن ثابت البناني رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ مر به وهو يلعب مع الصبيان فسلم عليهم، يعني سلم على الصبيان وهم يلعبون ـ لأن رسول الله ﷺ كان أحسن الناس خلقًا، فكان يمر بالصبيان فيسلم عليهم ـ ثم دعا أنس بن مالك رضي الله عنه وأرسله في حاجة.

فأبطأ على أمه ـ وأمه أم سليم امرأة أبي طلحة ـ، فلما جاء إليها سألته: ما الذي أبطأ بك؟، قال: بعثني النبي ﷺ في حاجة؛ يعني أرسلني بها. قالت: ما حاجته؟ قال: ما كنت لأخبر بسر رسول الله

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن جعفر، رقم(٢٤٨٢).
(٢) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب حفظ السرّ، رقم(٦٢٨٩).

ﷺ، فقالت: لا تخبرن أحدًا بسر رسول الله ﷺ. قال أنس لثابت ـ وكان ممن يلازمه ـ: لو كنت مخبرًا أحدًا بذلك لأخبرتك به؛ أي بالحاجة التي أرسله النبي ﷺ بها.

ففي هذا الحديث فوائد:

أولاً: حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه الجم وأنه ـ على شرفه ومكانته وجاهه عند الله وعند خلقه ـ يُتواضع حتى يسلم على الصبيان وهم يلعبون في السوق. ومن منا يفعل ذلك إلا من شاء الله.

ثانيًا: من فوائد هذا الحديث أنه يسن للإنسان أن يسلم على من مر به ولو كان من الصبيان؛ لأن السلام دعاء تدعو لأخيك: السلام عليك. ورده دعاء لك يقول: عليك السلام، ولأنك إذا سلمت على الصبيان عودتهم التربية الحسنة حتى ينشئوا عليها ويعيشوا عليها، ويكون لك أجر في كل ما اقتدوا بك فيه، فكل شيء يقتدي بك الإنسان من أمور الخير لك فيه أجر.

ثالثًا: **ومن فوائد هذا الحديث أيضًا:** جواز إرسال الصبي بالحاجة لكن بشرط أن يكون مأمونًا فيها، أما إذا كان غير مأمون؛ بأن يكون الصبي كثير اللعب ولا يهتم بالحوائج فلا تعتمد عليه.

رابعًا: ومنها ما ذكره الفقهاء رحمهم الله أن الصبي إذا جاءك

بحاجة وقال هذه من أبي هذه من أمي وما أشبه ذلك، فلك أن تقبلها وإن كان هو بنفسه لا يملك أن يتبرع من ماله بشيء، لكن إذا جاءك على أنه مرسل وقال: هذا من أبي؛ جاءك مثلاً بتمر، جاءك ببطيخ، جاءك بثوب، بأي شيء، إذا جاءك فاقبله ولا تقل: هذا صبي ربما سرقها، ربما كذا، أخذًا بالظاهر.

خامسًا: **ومن فوائد هذا الحديث أيضًا**: مراعاة الوالدة والأهل، وأن الإنسان إذا أراد أن يقضي حاجة وخاف أن يبطىء عليهم، أن يخبرهم إذا لم تفت الحاجة بذلك؛ يعني أنك إذا خرجت من أهلك فينبغي أن تقول خرجت للجهة الفلانية حتى يطمئنوا ولا تنشغل خواطرهم، والإنسان لا يدري ربما يذهب إلى الجهة الفلانية ويصاب بحادث أو مرض أو غيره، فإذا لم يكن معلومًا؛ بقي أمره مشكلاً عند أهله، فينبغي إذا أردت أن تذهب إلى شيء غير معتاد أن تخبرهم بوجهتك، أما الشيء المعتاد مثل الخروج للمسجد وما أشبهه فلا بأس.

لكن إذا أردت أن تخرج إلى شيء غير معتاد كأن تذهب إلى بلد قريب من بلدك قلت: اليوم أذهب إلى المكان الفلاني. أو تريد أن تذهب في نزهة قل: أذهب اليوم في نزهة، أخبرهم حتى يطمئنوا.

سادسًا: **ومن فوائد هذا الحديث أيضًا**: أنه لا يجوز للإنسان أن

يبدي سر شخص حتى لأمه وأبيه. فلو أن إنسانًا أرسلك في حاجة، ثم قال لك أبوك: ما الذي أرسلك به؟، لا تخبره ولو كان أباك، أو قالت أمك: ما الذي أرسلك به؟، لا تخبرها ولو كانت أمك؛ لأن هذا من أسرار الناس ولا يجوز إبداؤها لأحد.

سابعًا: ومنها حسن تربية أم سليم لابنها حيث قالت: لا تخبرن أحدًا بسرِّ رسول الله ﷺ وإنما قالت له ذلك ـ مع أنه لم يخبرها ولم يخبر غيرها ـ تأييدًا له وتثبيتًا له وإقامة للعذر له؛ لأنه أبى أن يخبرها؛ لأنه سر رسول الله ﷺ، فقالت: لا تخبرن به أحدًا، كأنها تقول: أنا أوافقك على هذا فاستمسك به.

ثامنًا: ومنها إظهار محبة أنس لثابت البناني رحمه الله؛ لأنه ملازم له، ولهذا تجده يروي عنه كثيرًا، ولهذا قال له لو: كنت مخبرًا أحدًا بذلك لأخبرتك، وهذا يدل على المحبة بين أنس وبين تلميذه ثابت.

وهكذا أيضًا ينبغي أن تكون المودة بين التلاميذ ومعلمهم متبادلة؛ لأنه إذا لم يكن بين التلميذ والمعلم مودة؛ فإن التلميذ لا يقبل كل ما قاله معلمه، وكذلك المعلم لا ينشط لتعليم تلميذه ولا يهتم به كثيرًا، فإذا صارت المودة بينهم متبادلة حصل بهذا خير كثير، والله الموفق.

٨٦ـ باب الوفاء بالعَهْد وإنجاز الوَعد

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله تعالى: باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد.

العهد: ما يعاهد الإنسان به غيره، وهو نوعان: عهد مع الله، وعهد مع عباد الله.

فأما العهد مع الله عزَّ وجلَّ، فإن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فقد أخذ الله العهد على عباده جميعًا أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ لأنه ربهم وخالقهم.

وأما العهد مع عباد الله؛ فالعهود التي تقع بين الناس؛ بين الإنسان وبين أخيه المسلم، بين المسلم وبين الكفار، وغير ذلك من العهود المعروفة. فقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعهد فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ يعني أن الوفاء بالعهد مسؤول عنه الإنسان يوم القيامة، يُسأل عن عهده هل وفى به أم لا؟

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ يعني ولا تخلفوا العهد.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ والإنسان إذا عاهد ولم يف فقد قال ما لا يفعل.

يعني لو قلت لشخص: عاهدتك ألا أخبر بالسر الذي بيني وبينك، أو عاهدتك ألا أخبر بما صنعت في كذا وكذا ثم نقضت وأخبرت، فهذا من القول بما لا يفعل ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ يعني كبر بغضًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون، فإن الله يبغض هذا الشيء ويحب الموفين بالعهد إذا عاهدوا.

* * *

١/ ٦٨٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» متفقٌ عليه(١).

زَادَ في روايةٍ لمسلم: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مسلِمٌ»(٢).

٢/ ٦٩٠ ـ وعن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خصلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إذا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» متفقٌ عليه(٣).

٣/ ٦٩١ ـ وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «لَوْ قَدْ جَاءَ مالُ الْبَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هكَذَا وَهكَذَا وَهكذَا» فَلَمْ يَجِيء مَالُ الْبَحْرَيْنِ حَتَّى قُبِضَ النبيُّ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْن أَمَرَ أَبُو بَكْر رضي الله عنه فَنَادَى: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رسول الله ﷺ عِدَةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا، فَأَتَيْتُهُ وقُلتُ لَهُ: إنَّ النبي ﷺ قال لي كَذَا وَكَذَا، فَحَثَى لي حَثْيَةً، فَعَدَدْتُهَا، فَإِذَا هِيَ خَمْسمِائَةٍ، فقال لي: خُذْ مِثْلَيْهَا. متفقٌ عليه(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة النفاق، رقم(٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم(٥٩).
(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم(٥٩) [١٠٩].
(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة النفاق، رقم(٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم(٥٨).
(٤) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم(٢٦٨٣)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ، رقم(٢٣١٤).

الشرح

نقل المؤلف الحافظ النووي رحمه الله في رياض الصالحين في باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث**» آيته يعني علامته ثلاث: «**إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**» يعني هذه من علامات المنافقين.

إذا رأيت الرجل يكذب إذا حدث، ويخلف إذا وعد، ويخون إذا اؤتمن، فهذه من علامات المنافقين؛ لأن أصل المنافق مبني على التورية والستر، يستر الخبث ويظهر الطيب، يستر الكفر ويظهر الإيمان.

والكاذب كذلك يخبر بخلاف الواقع، والواعد الذي يعد ويخلف كذلك، وكذلك الذي يخون إذا اؤتمن فهذه علامات النفاق والعياذ بالله.

وفي هذا التحذير من الكذب وأنه من علامات المنافقين، فلا يجوز للإنسان أن يكذب، لكن إن اضطر إلى التورية وهي التأويل فلا بأس؛ مثل أن يسأله أحد عن أمر لا يحب أن يطلع عليه غيره فيحدث بشيء خلاف الواقع، لكن يتأول فهذا لا بأس به.

وأما إخلاف الوعد فحرام، يجب الوفاء بالوعد سواء وعدته

مالاً، أو وعدته إعانة تعينه في شيء، أو أي أمر من الأمور إذا وعدت فيجب عليك أن تفي بالوعد.

وعلى هذا ينبغي للإنسان أن يحدد في المواعيد ويضبطها فإذا وعدك في المكان الفلاني، فليحدد الساعة الفلانية من أجل إذا تأخر الموعود وانصرف الواعد يكون له عذر، حتى لا يربطه في المكان كثيرًا.

وقد اشتهر عند بعض السفهاء أنهم يقولون أنا أواعدك ولا أخلفك؛ وعدي إنجليزي، يظنون أن الذين يوفون بالوعد هم الإنجليز، ولكن الوعد الذي يُوفى به هو وعد المؤمن، ولهذا ينبغي أن تقول إذا وعدت أحدًا وأردت أن تؤكد: إنه وعد مؤمن، حتى لا يخلفه؛ لأنه لا يخلف الوعد إلا المنافق.

«وإذا اؤتمن خان» يعني إذا ائتمنه الناس على أموالهم أو على أسرارهم أو على أولادهم أو على أي شيء من هذه الأشياء؛ فإنه يخون والعياذ بالله، فهذه أيضًا من علامة النفاق.

وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ففيه: «أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها» فالمراد به أن هذه الأربع لا تجتمع إلا في المنافق الخالص، وإن كان المؤمن قد يحصل له واحدة

منها، لكنه لا يكون منافقًا خالصًا؛ بل يكون فيه خصلة من نفاق حتى يدعها.

وهذه الأربع هي:

«**إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب**» وسبق الكلام على هاتين الجملتين.

والثالثة: قال: «**وإذا عاهد غدر**» ـ وهو قريب من قوله فيما سبق «**إذا وعد أخلف**» ـ أي إذا عاهد أحدًا غدر به، ولم يف بالعهد الذي عاهده عليه.

والرابعة: «**إذا خاصم فجر**» والخصومة: هي المخاصمة عند القاضي ونحوه، فإذا خصم فجر. والفجور في الخصومة على نوعين:

أحدهما: أن يدَّعي ما ليس له.

والثاني: أن ينكر ما يجب عليه.

مثال الأول: ادعى شخص على آخر فقال عند القاضي: أنا أطالب هذا الرجل بألف ريال ـ وهو كاذب ـ وحلف على هذه الدعوى، وأتى بشاهد زور، فحكم له القاضي، فهذا قد خاصم ففجر؛ لأنه ادعى ما ليس له، وحلف عليه.

ومثال الثاني: أن يكون عند شخص ألف ريال فيأتيه صاحب

الحق فيقول: أوفني حقي، فيقول: ليس عندي لك شيء، فإذا اختصما إلى القاضي ولم يكن للمدَّعِي بينة، حلف هذا المنكر الكاذب في إنكاره أنه ليس في ذمته له شيء، فيحكم القاضي ببراءته، فهذه خصومة فجور والعياذ بالله، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حلف على يمين صبر وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان**»[(١)] نعوذ بالله.

هذه الخصال الأربع إذا اجتمعت في المرء كان منافقًا خالصًا؛ لأنه استوفى خصال النفاق والعياذ بالله، وإذا كان فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها.

وفي هذا الحديث دليلٌ على التحذير البليغ من هذه الصفات الأربع: الخيانة في الأمانة، والكذب في الحديث، والغدر بالعهد، والفجور في الخصومة.

وفيه أيضًا دليلٌ على أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال نفاق؛ لقوله: «**كان فيه خصلة من النفاق**»، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ أن الإنسان يكون فيه خصلة نفاق، وخصلة

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ...﴾، رقم(٦٦٧٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم(١٣٨).

إيمان، وخصلة فسوق، وخصلة عدالة، وخصلة عداوة، وخصلة ولاية؛ يعني أن الإنسان ليس بالضرورة أن يكون: إما كافرًا خالصًا أو مؤمنًا خالصًا؛ بل قد يكون فيه خصال من الكفر وهو مؤمن، وخصال من الإيمان.

ثم ذكر حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لو قد جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا**» مال البحرين يعني مال الإحساء وما جاورها، كلها تسمى البحرين في ذلك العهد. «**لو قد جاء لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا**» يقول: بيديه عليه الصلاة والسلام، وهذا وعد من رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله أن يعطيه من مال البحرين هكذا وهكذا وهكذا.

فلما توفي الرسول عليه الصلاة والسلام قبل أن يأتي مال البحرين وكان الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه بإجماع الصحابة؛ بايعوه كلهم على أنه هو الخليفة، بعد رسول الله ﷺ.

فجاء مال البحرين في خلافة أبي بكر، فقال رضي الله عنه: «**من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين**» عدة: يعني وعد، أو دين: يعني على الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ربما يكون الرسول اشترى من أحد شيئًا فلزمه دين، أو وعد أحدًا شيئًا، وفعلاً توفي الرسول عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند رجل يهودي

في المدينة بثلاثين صاعًا من الشعير[١] اشتراها لأهله عليه الصلاة والسلام؛ فهو ﷺ ليس عنده مال، ليس جابيًا، للمال ولا يَبقى عنده المال إلا بمقدار ما يفرقه على المسلمين.

الحاصل أن أبا بكر نادى: من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين» يعني فليأتنا، فجاء جابر رضي الله عنه إلى أبي بكر وقال: إن النبي ﷺ قال: «لو قد جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا» فقال: خذ، فأخذ بيديه فعدها فإذا هي خمسمائة، فقال: خذ مثليها؛ لأن الرسول قال هكذا وهكذا وهكذا ثلاث مرات، فأعطاه أبو بكر رضي الله عنه العدة التي وعده إياها رسول الله ﷺ.

وفي هذا الحديث من الفوائد:

جواز تخصيص بعض المسلمين بشيء من بيت المال؛ لأن النبي ﷺ خصص جابرًا، ولكن بشرط ألا يكون ذلك لمجرد الهوى؛ بل للمصلحة العامة أو الخاصة.

وفيه دليلٌ على كرم النبي ﷺ حيث يحثو المال حثيًا، ولا يعده عدًّا لأنه قال بيديه، وهذا يدل على الكرم وأن المال ليس يساوي عنده شيئًا صلوات الله وسلامه عليه، بخلاف الذي جمع مالاً

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب وفاة النبي ﷺ، رقم(٤٤٦٧)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب الرهن وجوازه في الحضر كالسفر، رقم(١٦٠٣).

وعدده، يعدد «الهللات» قبل «الريالات» من حرصه على المال.

وفي هذا دليلٌ أيضًا على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب؛ لأنه وعد وتُوفي قبل أن يفي بالوعد؛ لأن المال لم يأتِ.

وفيه أيضًا دليلٌ على فضيلة أبي بكر رضي الله عنه لمبايعة الصحابة له.

وفيه دليلٌ أيضًا على قبول دعوى المدعي إذا لم يكن له من يرد دعواه، إذا لم يكن منازع وكان هذا المدعي ثقة، أما إذا كان له منازع، فإن البينة على المدعي واليمين على من أنكر. وفي هذه القصة لا منازع لجابر رضي الله عنه؛ لأن أبا بكر هو المسؤول عن بيت المال، وقد عرض على الناس: من كان له عدة أو دين فليأتنا، فجاء جابر ولم يقل له أبو بكر: أين البينة على أن الرسول ﷺ وعدك؟ ما طلب منه البينة؛ لأنه واثق به ولا منازع له.

وفيه دليلٌ أيضًا على اعتبار الشيء بنظيره، وأن الإنسان إذا وزن شيئًا في إناء وكان وزنه مثلاً مائة كيلو، فله أن يملأ هذا الإناء مرة ثانية ويعتبره مائة كيلو إذا تساوى الموزون في الخفة والثقل؛ لأن أبا بكر رضي الله عنه لما عدّ الحثية الأولى اعتبر الحثية الثانية والثالثة بمثلها في العدد.

فإذا فرضنا أن شخصًا وجب عليه خمسمائة صاع مثلاً، ثم كال في إناء عشرة أصواع، وأراد أن يعتبر الباقي بهذا الإناء، فإن ذلك لا بأس به؛ لأنه إذا تساوى الشيء فإنه لا بأس أن يُعتبر هذا الاعتبار لفعل أبي بكر الصديق رضي الله عنه. والله الموفق.

* * *

٨٧ـ باب المحافظة على مَا اعتاده من الخير

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢].

«وَالأنْكَاثُ»: جَمْعُ نِكْثٍ، وَهُوَ الْغَزْلُ المَنْقُوضُ.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] وقال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

١/٦٩٢ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ الله، لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْل!» متفقٌ عليه[١].

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله تعالى، في كتاب رياض الصالحين، باب المحافظة على ما اعتاده من الخير. يعني أن الإنسان إذا اعتاد فعل الخير فينبغي أن يداوم عليه، فمثلاً إذا اعتاد

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب ما يكره من ترك قيام الليل...، رقم(١١٥٢)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به...، رقم(١١٥٩) [١٨٥].

ألا يدع الرواتب ـ يعني الصلوات النوافل التي تتبع الصلوات الخمس ـ فليحافظ على ذلك، إذا كان يقوم الليل فليحافظ على ذلك، إذا كان يصلي ركعتين من الضحى فليحافظ على ذلك، وكل شيء من الخير إذا اعتاده فإنه ينبغي أن يحافظ عليه.

وكان من هدي النبي ﷺ أن عمله ديمة، يعني يداوم عليه؛ إذا عمل عملاً أثبته ولم يغيره؛ وذلك لأن الإنسان إذا اعتاد الخير وعمل به ثم تركه، فإن هذا يؤدي إلى الرغبة عن الخير؛ لأن الرجوع بعد الإقدام شر من عدم الإقدام، يعني لو أنك لم تفعل الخير؛ لكان أهون مما إذا فعلته ثم تركته، وهذا شيء مشاهد مجرب.

وذكر المؤلف رحمه الله تعالى عدة آيات من القرآن، كلها تدل على أن الإنسان ينبغي أن يحافظ على ما اعتاده من الخير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ يعني لا تكونوا كالمرأة الغازلة التي تغزل الصوف، ثم إذا غزلته وأتقنته نقضته أنكاثًا ومزقته؛ بل أديموا على ما عملتم عليه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي أنهم كانوا يعملون العمل الصالح لكن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وتركوا العمل، فلا تكونوا مثلهم.

وأما الأحاديث فذكر منها المؤلف رحمه الله حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل**» كلمة فلان يكنى بها عن الإنسان البشر الرجل. والمرأة يُقال لها فلانة، وهذه الكلمة «فلان» يحتمل أنها من كلام الرسول ﷺ وأن الرسول لم يذكر اسمه لعبد الله بن عمرو سترًا عليه؛ لأن المقصود القضية دون صاحبها، ويحتمل أن الرسول ﷺ عينه لكن أبهمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأيًّا كان فالمهم العمل.

والقضية أن رجلاً كان يقوم من الليل، ثم ترك قيام الليل، فلم يثبته ولم يداوم عليه، مع أن قيام الليل في الأرض سنة، فلو لم يفعله الإنسان لم يُلم عليه؛ يعني لو لم يقم من الليل ما لامه أحد ولا قال له: «لماذا لم تقم من الليل؟»؛ لأنه سنة، لكن كونه يقوم ثم يرجع ويترك، هذا هو الذي يلام عليه. ولهذا قال الرسول ﷺ: «**لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل**».

ومن ذلك وهو أهم وأعظم أن يبدأ الإنسان بطلب العلم الشرعي، ثم إذا فتح الله عليه بما فتح، تركه، فإن هذا كفرُ نعمةٍ أنعمها الله عليه، فإذا بدأت بطلب العلم فاستمر إلا أن يشغلك عنه شيء على وجه الضرورة، وإلا فداوم؛ لأن طلب العلم فرض

كفاية، وكل من طلب العلم فإن الله تعالى يثيبه على طلبه ثوابَ الفرض. وثواب الفرض أعظم من ثواب النافلة، كما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه**»(١) فطلب العلم فرض كفاية إذا قام به الإنسان قام بفرض عن عموم الأمة، وقد يكون فرض عين فيما إذا احتاج الإنسان إليه في نفسه، كمن أراد أن يصلي فلابد أن يتعلم أحكام الصلاة، ومن كان عنده مال فلابد أن يتعلم أحكام الزكاة، والبائع والمشتري لابد أن يتعلما أحكام البيع والشراء، ومن أراد أن يحج فلابد أن يتعلم أحكام الحج؛ هذا فرض عين.

أما بقية العلوم فهي فرض كفاية، فإذا شرع الإنسان في طلب العلم فلا يرجع وإنما يستمر إلا أن يصده عن ذلك أمر ضروري، ولهذا كان المنافقون هم الذين إذا بدأوا بالعمل تركوه.

في غزوة أحد خرج مع النبي ﷺ نحو ألف رجل وكان منهم الثلث تقريبًا من المنافقين ولما كانوا في أثناء الطريق بين المدينة وأحد، رجع المنافقون؛ لأنهم لم يخرجوا لله، رجعوا وقالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم(٦٥٠٢).

فالحاصل أنه ينبغي للمسلم إذا منَّ الله عليه بعمل مما يُتعبد به الله من عبادات خاصة كالصلاة، أو عبادات متعدية للغير كطلب العلم ألا يتقاعس وألا يتأخر، بل يستمر؛ فإن ذلك من هدي النبي ﷺ ومن إرشاده بقوله: «**يا عبدالله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل**». والله الموفق.

❊ ❊ ❊

٨٨ـ باب استحباب طيب الكلام
وطلاقة الوجه عند اللقاء

قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١/٦٩٣ ـ عَنْ عَدِيِّ بن حاتمٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» متفقٌ عليه[١].

٢/٦٩٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ» متفقٌ عليه[٢]. وهو بعض حديث تقدم بطولِه.

٣/٦٩٥ ـ وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيئًا، وَلَوْ أنْ تَلْقَى أخَاكَ بِوَجهٍ طَلِقٍ» رواه مسلم[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب طيب الكلام، رقم(٦٠٢٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم(١٠١٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم(٢٨٩١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من، رقم(١٠٠٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم(٢٦٢٦).

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله تعالى: باب (استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه عند اللقاء) يعني إذا لاقى الإنسان أخاه، فإنه ينبغي له أن يلاقيه بالبشر وطلاقة الوجه وحسن المنطق؛ لأن هذا من خُلق النبي ﷺ، ولا يعد هذا تنزلاً من الإنسان، ولكنه رفعة للإنسان وأجر له عند الله عزَّ وجلَّ، واتباع لسنة النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ كان دائم البشر، كثير التبسم صلوات الله وسلامه عليه.

فالإنسان ينبغي له أن يلقى أخاه بوجه طلق، وبكلمة طيبة؛ لينال بذلك الأجر والمحبة والألفة، والبُعد عن التكبر والترفع على عباد الله.

ثم ذكر المؤلف آيات منها قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ واخفض جناحك: يعني تنازل وتواضع للمؤمنين؛ لأن المؤمن أهل لأن يُتواضع له.

أما الكفار فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، لكن الذي يُتلقى بالبشر وطلاقة الوجه هو المؤمن، أما الكافر فإن

كان يُرجى إسلامه إذا عاملناه بطلاقة الوجه والبشر، فإننا نعامله بذلك رجاء إسلامه وانتفاعه بهذا اللقاء.

وأما إذا كان هذا التواضع وطلاقة الوجه لا يزيده إلا تعاليًا على المسلم وترفعًا عليه؛ فإنه لا يقابل بذلك.

ثم إن طلاقة الوجه توجب سرور صاحبك؛ لأنه يُفرق بين شخص يلقاك بوجه معبس وشخص يلقاك بوجه منطلق، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي ذر: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»، فهذا من المعروف؛ لأنه يدخل السرور على أخيه، ويشرح صدره.

ثم إذا قارن ذلك بالكلمة الطيبة صار بذلك مصلحتان: طلاقة الوجه، والكلمة الطيبة التي قال عنها النبي ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» يعني اجعلوا بينكم وبين النار وقاية «**ولو بشق تمرة**»؛ بالصدقة يعني لو أن تصدقوا بنصف تمرة، فإن ذلك يقيكم من النار إذا قبلها الله عزَّ وجلَّ.

«**فإن لم يجد فبكلمة طيبة**»؛ كلمة طيبة مثل أن تقول له: كيف أنت؟ كيف حالك؟ كيف إخوانك؟ كيف أهلك؟ وما أشبه ذلك؛ لأن هذه من الكلمات الطيبة التي تدخل السرور على صاحبك، كل

كلمة طيبة فهي صدقة لك عند الله وأجر وثواب وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**البر حسن الخلق**»[١] وقال: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[٢]، والله الموفق.

* * *

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم، رقم(٢٥٥٣).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم(١١٦٢)، وأبوداود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم(٤٦٨٢).

٨٩ - باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمخاطب وتكريره ليفهم إذا لم يفهم إلا بذلك

١/٦٩٦ - عن أنسٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ كانَ إذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أعَادَهَا ثَلاثًا حتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلاثًا. رواه البخاري(١).

٢/٦٩٧ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ كَلامُ رسول الله ﷺ كَلامًا فَصْلاً يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ. رواه أبوداود(٢).

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى في كتاب رياض الصالحين، باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمخاطب وتكريره ليفهم إذا لم يفهم إلا بذلك.

يعني أنه ينبغي للإنسان إذا تكلم وخاطب الناس أن يكلمهم بكلام بيّن، لا يستعجل في إلقاء الكلمات، ولا يدغم شيئًا؛ بل يكون كلامه فصلاً بينًا واضحًا حتى يفهم المخاطب بدون مشقة وبدون كلفة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثًا ليفهم عنه، رقم(٩٤).
(٢) رواه أبوداود، كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام، رقم(٤٨٣٩).

بعض الناس تجده يسرع في الكلام ويغمغم في الكلام حتى إن الإنسان يحتاج إلى أن يقول: ماذا تقول؟. هذا خلاف السنة، فالسنة أن يكون الكلام بيِّنًا واضحًا يفهمه المخاطب، وليس من الواجب أن يكون باللغة الفصحى؛ بل ولا من المستحب إذا كان الناس ينتقدون ذلك ويرون أن ذلك تنطع.

إنما تخاطب الناس بلسانهم، وليكن كلامك بينًا واضحًا، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاثًا حتى تُفهم عنه.

فقوله: «حتى تُفهم عنه» يدل على أنها إذا فهمت بدون تكرار فإنه لا يكررها، وهذا هو الواقع، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام نسمع عنه أحاديث كثيرة يقولها في خطبه وفي المجتمعات ولا يكرر ذلك.

لكن إذا لم يفهم الإنسان؛ بأن كان لا يعرف المعنى جيدًا فتكرر عليه حتى يفهم، أو كان سمعه ثقيلاً لا يسمع، أو كان هناك ضجة، فهنا يستحب أن تكرر حتى يفهم عنك.

وكان ﷺ إذا سلم على قوم «سلم عليهم ثلاثًا» يعني أنه لا يكرر أكثر من ثلاث؛ يسلم مرة فإذا لم يجب سلم الثانية، فإذا لم يجب سلم الثالثة، فإذا لم يجب تركه.

وكذلك في الاستئذان كان ﷺ يستأذن ثلاثًا، يعني إذا جاء للإنسان يستأذن في الدخول على بيته، يدق عليه الباب ثلاث مرات، فإذا لم يجب انصرف، فهذه سنته عليه الصلاة والسلام أن يكرر الأمور ثلاثًا ثم ينتهي.

وهل مثل ذلك إذا دق جرس الهاتف ثلاث مرات؟، يحتمل أن يكون من هذا الباب، وأنك إذا اتصلت بإنسان ودق الجرس ثلاث مرات وأنت تسمعه ولم يجبك، فأنت في حل إذا وضعت سماعة الهاتف.

ويحتمل أن يُقال: إن الهاتف له حكم آخر وأنك تبقى حتى تيأس من أهل البيت؛ لأنهم ربما لا يكونون حول الهاتف عند اتصالك، فربما يكونون في طرف المكان ويحتاجون إلى خطوات كثيرة حتى يصلوا إلى الهاتف، والهاتف سريع في تكرار الصوت؛ فلهذا ربما يُقال: إنه يقيد بالثلاث وربما يقال يقيد بحيث تيأس من الإجابة، يعني أنك إذا اتصلت وتكرر صوت الجرس ولم يجب فقد أيست وتغلق الهاتف.

ثم ذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان كلامه «فصلاً» يعني مفصلاً، لا يدخل الحروف بعضها على بعض، ولا الكلمات بعضها على بعض، حتى لو شاء العادُّ أن يحصيه

لأحصاه من شدة تأنيه ﷺ في الكلام.

وهكذا ينبغي للإنسان أن لا يكون كلامه متداخلاً بحيث يخفى على السامع؛ لأن المقصود من الكلام هو إفهام المخاطب، وكلما كان أقرب إلى الإفهام كان أولى وأحسن.

ثم إنه ينبغي للإنسان إذا استعمل هذه الطريقة؛ يعني إذا جعل كلامه فصلاً بينًا واضحًا، وكرره ثلاث مرات لمن لم يفهم، ينبغي أن يستشعر في أنه متبع لرسول الله ﷺ حتى يحصل له بذلك الأجر وإفهام أخيه المسلم.

وهكذا جميع السنن اجعل على بالك أنك فيها متبع لرسول الله ﷺ حتى يتحقق لك الإتباع وثوابه، والله الموفق.

* * *

٩٠ـ باب إصغاء الجليس لحديث جليسه الذي ليس بحرام واستنصات العالِم والواعظ حاضرِي مجلسه

١/٦٩٨ ـ عن جَرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» ثُمَّ قال: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» متفقٌ عليه(١).

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله تعالى في رياض الصالحين، باب إصغاء الجليس لحديث جليسه الذي ليس بحرام واستنصات العالم والواعظ حاضري مجلسه.

وقد سبق لنا أن النبي ﷺ كان إذا سلم سلم ثلاثًا، والمراد: إذا لم يسمع المسلَّم عليه؛ فإنه يسلم أول مرة، فإذا لم يجب سلم ثانية، فإذا لم يجب سلم الثالثة، ثم تركه.

أما إذا ردّ السلام عليه من أول مرة فإنه لا يعيد السلام مرة ثانية.

أما هذا الباب ففيه أنه ينبغي للإنسان أن يكون حسن الإصغاء إلى كلام جليسه، إذا لم يكن يتكلم بمحرم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المعلم، باب الإنصات للعلماء، رقم(١٢١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ..، رقم(٦٥).

وحسن الإصغاء يكون بالقول وبالفعل.

أما بالقول: فبألا يتكلم إذا كان جليسه يتكلم، فيحصل بذلك التشويش، أن يكون كل واحدٍ يتكلم مع جليسه، والذي ينبغي في المجالس أن يكون الكلام كلامًا واحدًا حتى ينتفع الناس جميعًا بما يتكلم به بعضهم.

وأما الإصغاء بالفعل: فينبغي إذا كان الإنسان يحدثك أن تقبل إليه بوجهك، وألا تلتفت يمينًا وشمالاً؛ لأنك إذا التفت يمينًا وشمالاً وهو يحدثك نسبك إلى الكبرياء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨]، فينبغي أن تصغي إليه وأن تقابله بوجهك حتى يعرف أنك قد أحسست به، وأنك قد اهتممت بكلامه، إلا إذا كان يتكلم بشيء محرم، كغيبة، أو كلام لغو، أو ما أشبه ذلك من الأشياء المحرمة، فإنك لا تصغي إليه؛ بل انهه عن ذلك الشيء.

فإن استمر يتكلم بالكلام المحرم ولم يصغ إلى قولك وإلى نصحك؛ فالواجب عليك أن تقوم من مكانك وأن تفارقه؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: «**استنصِت الناس**» يعني سكِّتهم حتى يستمعوا لما يقوله النبي ﷺ.

ثم قال النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**» يضرب هنا بالرفع، ولا يجوز جزمها على أنها جواب النهي، بل هي بالرفع لأنها حال، يعني لا ترجعوا بعدي كفارًا حال كونكم يضرب بعضكم رقاب بعض، وفي هذا دليلٌ على أن قتال المؤمنين بعضهم بعضًا كفر، وقد أيد هذا الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[1] لكنه كفر لا يخرج من الملة، والدليل على أنه لا يخرج من الملة قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠] والله الموفق.

* * *

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم(٦٠٤٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ سباب، رقم(٦٤).

٩١ ـ بابُ الوَعظ والاقتصاد فيه

قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

١/٦٩٩ ـ وعن أبي وَائِلٍ شقيق بن سَلَمَةَ رضي الله عنه قال: كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يُذَكِّرُنَا في كُلِّ خمِيسٍ مَرَّة، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أبَا عَبْدِ الرَّحْمنِ، لَوَدِدْتُ أنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ، فقال: أما إِنَّهُ يَمْنَعني مِنْ ذلكَ أني أكْرَهُ أنْ أمِلَّكُمْ وَإِنِّي أتخَوَّلُكُمْ بالْمَوْعِظَةِ، كَمَا كَانَ رسول الله ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بها مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا. متفقٌ عليه[1].

«يَتَخَوَّلُنَا»: يَتَعَهَّدُنَا.

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى في كتاب رياض الصالحين، باب الوعظ والاقتصاد فيه.

الوعظ: هو ذكر الأحكام الشرعية مقرونة بالترغيب أو الترهيب، يعني أن تقول للإنسان مثلاً: إنه يجب عليك كذا وكذا فاتَّقِ الله، وقم بما أوجب الله عليك وما أشبه ذلك.

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة، رقم(٧٠)، ومسلم، كتاب صفة القيامة، باب الاقتصاد في الموعظة، رقم(٢٨٢١).

وأعظم واعظ هو كتاب الله عزَّ وجلَّ فإن الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، فأعظم ما يُوعظ به: كتابُ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه جامع بين الترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار، والمتقين والمهملين، فهو أعظم كتاب يوعظ به.

ولكن إنما يكون كذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

أما من قست قلوبهم والعياذ بالله فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وهكذا المؤمن كلما قرأ آية من كتاب الله؛ ازداد إيمانًا بالله، واستبشر بما جعل الله في قلبه من النور من هذا الكتاب العظيم ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٥]، نعوذ بالله من ذلك.

فينبغي للإنسان أن يعظ الناس بالقرآن، وبالسنة، وبكلام الأئمة، وبكل ما يلين القلوب ويوجهها إلى الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ ذكر المؤلف رحمه الله أنه ينبغي الاقتصاد في الموعظة،

يعني: ألا تكثر على الناس فتملهم، وتكره إليهم القرآن والسنة وكلام أهل العلم؛ لأن النفوس إذا ملت كلّت، وتعبت، وسئمت، وكرهت الحق وإن كان حقًّا، ولهذا كان أحكم الواعظين من الخلق محمد ﷺ يتخول الناس في الموعظة، لا يكثر عليهم؛ لئلا يملوا ويسأموا ويكرهوا ما يُقال من الحق.

ثم صدر المؤلف هذا الباب بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ ادع إلى سبيل ربك: يعني إلى دين الله؛ لأن سبيل الله هو دين الله حيث إنه يوصل إلى الله تعالى، فإنَّ من سلك هذا الدين؛ أوصله إلى الله سبحانه وتعالى، ولأن هذا الدين وضعه الله عزَّ وجلَّ وشرعه لعباده، ولهذا أضيف إليه فقيل: سبيل الله.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ بثلاثة أمور:

أولاً: الحكمة؛ وذلك بأن تنزل الأمور منازلها، في الوقت المناسب، والكلام المناسب، والقول المناسب؛ لأن بعض الأماكن لا ينبغي فيها الموعظة، وبعض الأزمنة لا ينبغي فيها الموعظة، وكذلك بعض الأشخاص لا ينبغي أن تعظهم في حال من الأحوال؛ بل تنتظر حتى يكون متهيئًا لقبول الموعظة، ولهذا قال

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ قال العلماء: الحكمة: وضع الأشياء في مواضعها.

ثانيًا: **الموعظة الحسنة**، يعني اجعل دعوتك مقرونة بموعظة حسنة، موعظة تلين القلب وترققه وتوجهه إلى الله، بشرط أن تكون حسنة؛ إن كان الترغيب فيها أولى فبالترغيب، وإن كان الترهيب والتخويف فيها أولى فبالتخويف والترهيب.

وكذلك تكون حسنة من حيث الأسلوب والصياغة، تكون حسنة مقبولة. كذلك حسنة من حيث الإقناع، بحيث تأتي بموعظة تكون فيها أدلة مقنعة؛ أدلة شرعية، وأدلة عقلية تسند بالأدلة الشرعية؛ لأن بعض الناس يقنع بالأدلة الشرعية كالمؤمنين الخلّص، فإن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومن الناس من لا يكتفي بالأدلة الشرعية؛ بل يحتاج أن تسند الأدلة الشرعية عنده بأدلة عقلية، ولهذا يستدل الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة بالأدلة العقلية على ما أوحاه إلى نبيه من الأدلة الشرعية.

انظر مثلاً إلى البعث بعد الموت؛ فالبعث بعد الموت أنكره الكفار وقالوا من يحيي العظام وهي رميم؟، كيف يموت الإنسان وتأكل الأرض عظامه ولحمه وجلده، كيف يبعث؟، فأجاب الله:

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٩]، من الذي خلق هذه العظام أول مرة؟، هو الله، وإعادة الخلق أهون من ابتدائه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ ﴾ [يس: ٨١]، هذه أدلة عقلية؛ الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

وكذلك يستدل الله عزَّ وجلَّ على إمكان البعث بإحياء الأرض بعد موتها، فإن الله تعالى ينزل المطر على أرض هامدة قاحلة، ليس فيها حياة ولا نبات، فتصبح الأرض مخضرة بهذا المطر. من الذي أحيا هذا النبات إلا الله؟ فالذي أحيا هذا النبات بعد يبسه وموته قادر على إحياء الموتى.

ولابد من حياة أخرى؛ لأنه ليس من الحكمة أن الله ينشيء هذا الخلق ويمدهم بالنعم والرزق، وينزل عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، ويشرع الجهاد لأعداء الله ثم تكون المسألة مجرد دنيا زائلة، هذا خلاف الحكمة؛ بل لابد من حياة أخرى هي الحياة الحقيقية كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر: ٢٤].

الحياة الحقيقية: هي حياة الآخرة ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾؛ يعني إذا وعظت موعظة

حسنة وصار الإنسان يجادل ولم يقبل فجادل، لا تنسحب، لكن جادل بالتي هي أحسن من حيث الأسلوب، ومن حيث العرض، ومن حيث الإقناع، إذا استدل عليك بدليل فحاول إبطال دليله، فإذا كان إبطال دليله يطول فانتقل إلى دليل آخر، ولا تأخذ في الجدال معه؛ بل انتقل إلى دليل آخر لا يستطيع مجادلتك فيه.

انظر إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما حاجه الرجل في الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ يعني وأنت لا تستطيع أن تحيي وتميت ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ كيف يحيي ويميت هذا المجادل المعاند؟ يؤتى بالرجل المستحق للقتل فيقول: لا تقتلوه، ويُؤتى بالرجل لا يستحق القتل فيقول: اقتلوه، هكذا موّه للناس.

فقال إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ولم يجادله على قوله أنا أحيي وأميت، وإلا لو جادله لقال: أنت لم تحي ولم تُمت. أنت تفعل سبب الموت فيموت، وهو القتل، وترفع موجب القتل فلا يقتل، لكنه عدل عن هذا ـ لأنه يكون فيه مجادلة ـ إلى شيء لا يستطيع الخصم أن يتحرك قال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلم يستطع ردًّا، ولهذا قال: ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فالحاصل أن الله يقول: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ويُفهمُ من الآية أنَّ من لا يستطيع المجادلة بالتي هي أحسن فلا يجادل؛ لأنه قد يأتي إنسان مؤمن حقًّا وليس عنده إشكال لما معه من الإيمان، لكن يجادله خصم يعجز عن مقارعته، ففي هذه الحال لا تجادل؛ لأنك إن فعلت فلن تجادل بالتي هي أحسن، بل اتركه إلى وقت آخر أو إلى أن يأتي أحد أقوى منك في المجادلة فيجادله، والله أعلم.

* * *

٧٠٠/٢ ـ وعن أبي الْيَقْظَان عَمَّار بن يَاسر رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُل، وَقِصرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فقْهِهِ، فَأطِيلوا الصَّلاةَ، وأقْصِروا الخُطْبَةَ» رواه مسلم[1].

«مَئِنَّةٌ» بميم مفتوحة، ثم همزة مكسورة، ثم نون مشدَّدة، أي: عَلامَةٌ دَالَّةٌ عَلى فِقْهِهِ.

٧٠١/٣ ـ وعن مُعَاوِيَةَ بن الحَكَم السُّلَمي رضي الله عنه قال: «بَيْنَا أنا أصَلِّي مَعَ رسول الله ﷺ، إذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم(٨٦٩).

فَرَمَاني القَوْمِ بِأَبْصَارِهِمْ! فَقُلْت: وَاثُكْلَ أمِّيَاه! ما شَأنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْربُونَ بِأيْدِيهِمْ عَلَى أفْخَاذِهِمْ! فَلَمَّا رَأيتُهُمْ يُصَمِّتُونَني لكِنِّي سَكَتُّ. فَلَمَّا صلَّى رسول الله ﷺ، فَبأبي هُوَ وَأمِّي، مَا رأيْت مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْه، فَوَ الله ما كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَني، قال: «إنَّ هذِهِ الصَّلاةَ لا يصْلُح فِيها شَيءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إنَّمَا هُو التَّسْبِيحُ والتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءةُ القُرآنِ» أو كما قال رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، إنِّي حَدِيث عَهْدٍ بجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ الله بالإسلامِ، وَإنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأتُونَ الْكُهَّانَ؟ قال: «فلا تأتهم»، قلت: ومنا رجالٌ يَتَطيّرون؟ قال: «ذاك شيءٌ يَجِدونَه في صُدورِهِم، فَلاَ يَصُدَّنَّهُمْ» رواه مسلم(١).

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في باب الوعظ والاقتصاد فيه، وعدم الملل والسآمة على الناس فيما يعظ به.

وسبق الكلام عن الآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله في هذا الباب، وهي قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

ثم ذكر المؤلف أحاديث منها حديث عمار بن ياسر، أن النبي

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، رقم(٥٣٧).

ﷺ قال: «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه**» يعني صلاة الجمعة.

فصلاة الجمعة لها خطبتان قبلها، فيقول النبي ﷺ: «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه**» وهذا وإن كان ظاهرًا في خطبة الجمعة فهو عام أيضًا، حتى الخطب العارضة، لا ينبغي للإنسان أن يطيل على الناس، كلما قصر كان أحسن لوجهين:

الوجه الأول: ألا يمل الناس.

والوجه الثاني: أن يستوعبوا ما قال.

لأن الكلام إذا طال ضيع بعضه بعضًا. فإذا كان قصيرًا مهضومًا مستوعبًا انتفع الناس به، وكذلك لا يلحقهم الملل.

وأما طول الصلاة فالمراد أن تكون كصلاة النبي ﷺ ليست طويلة؛ لأن النبي ﷺ أنكر على معاذ إطالته في صلاة العشاء، وأنكر على الرجل الآخر إطالته في صلاة الفجر، وقال: «**أيها الناس إن منكم منفرين**»(١).

فالمراد بطول الصلاة هنا الطول الذي يوافق صلاة رسول الله ﷺ، هذا إذا كان الإنسان إمامًا، أما إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود، رقم(٧٠٢)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة، رقم(٤٦٦).

ولا أحد يمنعه؛ لأنه يعامل نفسه بنفسه، ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة**» أطيلوها كما ورد واقصروا الخطبة، لكن لابد من خطبة تثير المشاعر ويحصل بها الموعظة والانتفاع.

ثم ذكر المؤلف حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه؛ أنه بينما كان مع النبي ﷺ يصلي إذا عطس رجل من القوم فقال: الحمد لله، فقال له معاوية: يرحمك الله؛ لأنك إذا سمعت العاطس يحمد الله بعد عطاسه، وجب عليك أن تشمته؛ فتقول: يرحمك الله، حتى ولو كنت تقرأ أو تطالع أو تراجع.

أما في الصلاة فلا يجوز؛ لأن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، ولهذا أنكر الناس بأعينهم على معاوية، فرموه بأبصارهم، فقال: واثكل أمّياه. ماذا صنعت؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم يسكتونه، فسكت ومضى في صلاته، فلما انصرف من الصلاة دعاه النبي ﷺ فقال: فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا أحسن تعليمًا منه لا قبله ولا بعده، والله ماكهرني ولا شتمني ولا ضربني، وإنما خاطبه بلطف وقال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فهذه موعظة قصيرة مفيدة، انتفع بها معاوية، ونقلها إلى من بعده.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أنه لا بأس أن يلتفت المصلي أو ينظر إذا كان ذلك لمصلحة أو حاجة، وإلا فالأفضل أن يكون نظره إلى موضع سبجوده، وفي حال الجلوس يكون نظره إلى موضع إشارته؛ لأن الجالس في التشهد أو بين السجدتين يرفع إصبعه قليلاً ويشير بها عند الدعاء، فيكون نظره إلى موضع إشارته، وأما في حال القيام والركوع فينظر إلى موضع سجوده.

وقال بعض العلماء: ينظر تلقاء وجهه، والأمر في هذا واسع؛ إن شاء نظر إلى موضع سجوده، وإن شاء نظر تلقاء وجهه، لكن إذا حصلت حاجة والتفت فإن ذلك لا بأس به.

وفيه أيضًا أن العمل اليسير في الصلاة لا يضر؛ لأن الصحابة جعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ ذلك، إلا أنه قال «**إذا رابكم شيء فليسبح الرجال، ولتصفح النساء**»[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب الإمام يأتي قومًا فيصلح بينهم، رقم (٧١٩٠)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب تقديم الجماعة من يصلي بهم إذا تأخر الإمام، رقم(٤٢١).

وفيه دليلٌ على أن الكلام في الصلاة لا يجوز، وأنه مبطل لها، إلا إذا كان الإنسان جاهلاً أو ناسيًا أو غافلاً، فمثلاً لو أن أحدًا سلَّم عليك وأنت تصلي، أو دقَّ الباب وأنت تصلي فقلت غافلاً: ادخل. أو قلت: عليكم السلام ناسيًّا أو غافلاً، فصلاتك صحيحة؛ لأن الله لا يؤاخذ الإنسان بالجهل أو بالنسيان أو بالغفلة ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

ومن فوائد الحديث: حسن تعليم النبي ﷺ، وأنه يعلِّم بالرفق واللين، وهذا هديه ﷺ وهو أسوة أمته، فالذي ينبغي للإنسان أن ينزِّل الناس منازلهم، فالمعاند المكابر يخاطب بخطاب يليق به، والجاهل الملتمس للعلم يخاطب بخطاب يليق به.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين، وإنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، والصلاة كما نعلم فيها قراءة قرآن، وفيها تكبير، وفيها تسبيح، وفيها دعاء، وفيها تشهد، حسب ما هو معروف عند المسلمين.

ومن فوائد هذا الحديث: الثناء على الواعظ إذا كانت عظته جيدة وليس فيه عنف، وهذا يشجع أهل الوعظ على أن يلتزموا بهذه الطريقة.

وفي سياق حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وإن الله تعالى قد جاء بالإسلام. قال هذا الكلام ليبين حاله من قبل وحاله من بعد، وليتحدث بنعمة الله عليه، حيث كانوا في جاهلية لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، إلا ما جرت به العادات بينهم.

ومَنَّ الله علينا بهذا الإسلام، وهو النور المبين، والفرقان العظيم، فبيَّن الحق من الباطل، وبيَّن النافع من الضار، وبيَّن الإيمان من الكفر، والتوحيد من الشرك إلى غير ذلك مما منَّ الله به على هذه الأمة بالإسلام.

ثم قال رضي الله عنه: «وإن منا رجالاً يأتون الكُهَّان. قال: **«فلا تأتهم»**.

الكهان كانوا رجالاً تنزل عليهم الشياطين بما يسمعون من خبر السماء، ثم يحدثون الناس بما أخبرت به الشياطين، ويضيفون إلى الخبر الحق أشياء كثيرة من الكذب، فإذا صدقوا في واحد من مائة، اتخذهم الناس حكامًا؛ ولهذا يأتون إليهم ويتحاكمون إليهم أي إلى الكهان.

فالكاهن عبارة عن رجل يأتيه الشيطان يخبره بما سمع من خبر السماء، ويضيف إلى هذا الخبر أشياء كثيرة من الكذب، يأتون إليهم

الناس ويقولون ما حالنا؟ ما مستقبلنا؟ يسألونهم عن أمور مستقبلة عامة أو خاصة، فيخبرونهم بما سمعوا من أخبار الشياطين.

قال النبي ﷺ: «فلا تأتهم»، كلمة واحدة: لا تأت الكهان. وهل نظن أن معاوية أو غيره من الصحابة إذا قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام لا تفعلوا أن يفعلوا؟ كلا، لا نظن ذلك، فإنهم ليسوا كحال كثير من الناس اليوم يُكرّر عليه النهي ولكنه لا ينتهي، أو يتأول ويقول: النهي للكراهة، أو النهي للأدب أو لخلاف الأولى، أو ما أشبه ذلك.

ثم اعلم أن الكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المسقبل، وإذا أتاه الإنسان فله ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن يأتيه يسأله ولا يصدقه، فهذا ثبت في صحيح مسلم أنه لا تقبل له صلاة أربعين يومًا[1].

الحال الثانية: أن يأتيه يسأله ويصدقه، فهذا كافر؛ لقوله ﷺ: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد»[2]، ووجه كفره أن تصديقه إياه يتضمن تكذيب قول الله جلَّ وعلا: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، لأن الكاهن

---

(١) رواه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة...، رقم(٢٢٣٠).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض، رقم(١٣٥).

يخبر عن الغيب في المستقبل، فإذا صدقته فمضمونه: أنه تكذيب لهذه الآية فيكون كفرًا، ولهذا جاء في الحديث: «من أتى كاهنًا فصدقه ـ يعني فسأله فصدقه ـ بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد».

الحال الثالثة: أن يسأل الكاهن ليُكذبه، وإنما يسأله اختبارًا، فهذا لا بأس به. وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد عما أضمر له. فقال: الدخ يعني الدخان، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «اخسأ فلن تعدو قدرك»(١).

فإذا سأله ليفضحه ويكشف كذبه وحاله للناس، فإن ذلك لا بأس به، بل قد يكون محمودًا مطلوبًا لما في ذلك من إبطال الباطل.

ثم سأله سؤالاً آخر قال: ومنا رجال يتطيرون؟ قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم».

التطير: التشاؤم بالأشياء، وكان العرب يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور، حيث يهيج الطير، فإذا طار يمينًا فله حال، وإن طار يسارًا فله حال، وإن اتجه أمامًا فله حال، أو رجع فله حال. حسب اصطلاحات العرب وخرافاتهم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب القدر، باب يحول بين المرء وقلبه، رقم(٦٦١٨)، ومسلم، كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد، رقم(٢٩٣٠).

فكانوا يتطيرون؛ يعني يجعلون الطيور هي التي تمضيهم أو تردهم، إذا طار الطير مثلاً عن اليسار قال: هذا نذير سوء فلا أسافر، وإذا طار يمينًا قال: هذا سفر مبارك. اليمين من اليمن والبركة، وهكذا اصطلاحات خرافية عندهم.

فكانوا يتشاءمون أكثر مما يتشاءمون في الطيور، وربما يتشاءمون في الأيام، وربما يتشاءمون في الشهور، وربما يتشاءمون فيما يسمعون من الأصوات، وربما يتشاءمون حتى في الأشخاص، حتى إنه يوجد الآن أناس إذا خرج من بيته أول ما يخرج ثم لاقاه شخص قبيح المنظر قال: هذا اليوم يوم سوء وتشاءم، وإذا لقي رجلاً جميل الوجه قال: هذا اليوم يوم خير فتفاءل.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**هذا شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم**».

والإنسان إذا ركن إلى التطير تنغصت عليه حاله، وبقى دائمًا في غمٍّ وهمٍّ.

وكان العرب يتشاءمون من شهر شوال في النكاح، يقولون: الذي يتزوج في شهر شوال لا يوفق؛ هكذا يقول العرب، فكانت عائشة رضي الله عنها تقول: تزوجني النبي ﷺ في شوال؛ عقد عليها

في شوال، ودخل بها في شوال. فتقول: أيكم أحظى عنده مني[١]؟

لا شك أن عائشة أحب النساء إليه بعد أن تزوجها، ومع ذلك عقد عليها في شوال، ودخل عليها في شوال، والعرب لجهلهم يقولون: الذي يتزوج في شوال لا يوفق، ونحن الآن نشاهد أناسًا يتزوجون في شوال ولا يكون فيهم إلا الخير.

فالمهم أنه يجب عليك أن تمحو من قلبك التطير والتشاؤم، وأن تكون دائمًا متفائلاً، وتجعل الدنيا دائمًا أمامك واسعة، والطريق أمامك دائمًا مفتوحًا. فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعجبه الفأل الحسن ويكره الطيرة[٢].

فاجعل نفسك دائمًا في تفاؤل، والذي يريده الله سيكون، وكُن مسرورًا فرحًا، واسع الصدر فالدنيا أمامك واسعة، والطريق مفتوح، فهذا هو الخير.

أما التشاؤم والانقباض، وأن يجعل الإنسان باله في كل شيء، فإنها ستضيق عليه الدنيا.

---

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال...، رقم(١٤٢٣).

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، رقم(٣٥٣٦).

وهذا من محاسن الإسلام أنه ألغى الطيرة وأثبت الفأل؛ لأن الفأل خير والطيرة شر، والله الموفق.

* * *

٩٢ـ بابُ الوقار والسّكينة

قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

١/٧٠٣ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: مَا رَأيْتُ رسول الله ﷺ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى تُرَى مِنْهَ لَهَوَاتُه، إنَّمَا كانَ يَتَبَسَّمُ. متفقٌ عليه(١).

«اللَّهَوَات» جَمْعَ لَهَاةٍ: وَهِيَ اللَّحْمَة الَّتي في أقْصَى سَقْفِ الْفَم.

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله تعالى، باب الوقار والسكينة.

الوقار: هو هيئة يتصف بها العبد يكون وقورًا، بحيث إذا رآه من يراه يحترمه ويعظمه.

والسكينة: هي عدم الحركة الكثيرة وعدم الطيش؛ بل يكون ساكنًا في قلبه، وفي جوارحه، وفي مقاله.

ولا شكَّ أن هذين الوصفين الوقار والسكينة من خير الخصال

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك، رقم(٦٠٩٢)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، رقم(٨٩٩) [١٦].

التي يمنّ الله بها على العبد؛ لأن ضد ذلك أن يكون الإنسان لا سكينة عنده، ولا هيبة له، وليس وقورًا؛ بل هو مهين، قد وضع نفسه ونزلها.

وضد السكينة أن يكون الإنسان كثير الحركات، كثير التلفت، لا يُرى عليه أثر في سكينة قلبه ولا قوله ولا فعله، فإذا منَّ الله على العبد بالوقار والسكينة؛ فإنه ينال بذلك خُلقين كريمين.

وضد ذلك أيضًا العجلة؛ بأن يكون الإنسان عجولاً لا يتحرَّى ولا يتأنَّى، وليس له هم إلا القيل والقال اللذان نهى عنهما رسول الله ﷺ، فقد كان ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال[1].

فإذا لم يكن الإنسان متأنيًا ولا متثبتًا في الأمور، حصل منه زلل كثيرٌ، وصار الناس لا يثقون في قوله، وصار عند الناس من القوم الذين يُرد حديثهم ولا يُنتفع به.

ثم استشهد المؤلف بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾، رقم(١٤٧٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي. . .، رقم(١٧١٥).

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ : الذين منَّ الله عليهم بالرحمة ووفقهم للخير، هم الذين يمشون على الأرض هونًا. يعني إذا رأيتهم؛ رأيت رجلاً في مشيته وقار، بدون أن يعجل عجلة تقبح.

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ : يعني قالوا قولاً يسلمون به من شرهم، وليس المعنى أنهم يلقون السلام؛ بل المعنى أنه إذا خاطبه الجاهل قال قولاً يسلم به من شره، إما أن يدافعه بالتي هي أحسن، وإما أن يسكت إذا رأى السكوت خيرًا.

والحاصل أنه يقول قولاً يسلم به؛ لأن الجاهل مُشْكِلٌ؛ إن خاصمته أو جادلته فربما يبدر منه كلام سيء عليك، وربما يبدر منه كلام سيىء على ما تدعو إليه من الخير، فيسب الدين وما أشبه ذلك والعياذ بالله.

فمن توفيق عباد الرحمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، يعني قالوا قولاً يسلمون به ولا يحصل لهم به إثم، وكذلك من أوصافهم ما ذكره في آخر الآيات.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ : يعني لا يشهدون القول الكذب، ولا الفعل القبيح.

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ ﴾ الذي ليس فيه خير ولا شر. ﴿ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ أي سالمين منه.

وذلك أن الأشياء إما خير وإما شر وإما لغو، فالشر لا يشهدونه، واللغو يسلمون منه، ويمرون به كرامًا، والخير يرتعون فيه.

ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا قط ضاحكًا حتى ترى منه لهواته، إنما كان يتبسم»، يعني ليس يضحك ضحكًا فاحشًا بقهقهة، يفتح فمه حتى تبدو لهاته، ولكنه ﷺ كان يتبسم، أو يضحك حتى تبدو نواجذه أو تبدو أنيابه؛ لكن بتبسم لا بقهقهة حتى يفتح فمه وترى منه لهواته ـ يعني لهاته ـ وهذا من وقار النبي ﷺ.

ولهذا تجد الرجل كثير الكركرة الذي إذا ضحك قهقه وفتح فاه تجده يكون هينًا عند الناس، وضيعًا عندهم ليس له وقار، وأما الذي يكثر التبسم في محله، فإنه يكون محبوبًا تنشرح برؤيته الصدور وتطمئن به القلوب، والله الموفق.

* * *

٩٣ـ باب النّدب إلى إتيان الصّلاة والعِلم ونحوهما من العبادات بالسكينة والوقار

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

١/٧٠٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاَةُ، فَلا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَأَنتُمْ تَمْشُونَ، وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَة، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا» متفقٌ عليه[1].

زاد مسلم في روايةٍ له: «فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعمِدُ إِلَى الصَّلاَةِ فَهُوَ فِي صَلاَةٍ»[2].

٢/٧٠٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّهُ دَفَعَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ يَوْمَ عَرَفَةَ فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَاءَهُ زَجْرًا شَدِيدًا وَضَرْبًا وَصَوْتًا للإبِلِ، فَأَشَارَ بِسَوطِهِ إِلَيْهِم وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَإِنَّ البِرَّ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة، رقم(٩٠٨)، ومسلم، كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي...، رقم(٦٠٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي...، رقم(٦٠٢) [١٥٢].

لَيْسَ بِالإيضَاعِ» رواه البخاري[١]. وروى مسلم بعضه[٢].

«الْبِرَّ»: الطَّاعَةُ: «وَالإيضَاعُ» بِضادٍ معجمةٍ قبلها ياءٌ وهمزةٌ مكسورةٌ: وهو الإسراع.

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله، باب الندب إلى إتيان الصلاة والعلم ونحوهما من العبادات بالسكينة والوقار.

من المعلوم أن الصلاة هي آكد أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي من أعظم شعائر الله. والإنسان إذا أقبل إلى الصلاة؛ فإنما يقبل إلى الوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ.

ومن المعلوم أن الإنسان إذا أتى إلى شخص يعظمه من بني آدم؛ فإنه يأتي إليه بأدب وسكينة ووقار، فكيف إذا أتى ليقف بين يدي الله عزَّ وجلَّ؟

ولهذا ينبغي للإنسان أن يأتي إلى الصلاة في سكينة كما سيأتي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم استدل المؤلف رحمه الله لهذا الباب بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب أمر النبي ﷺ بالسكينة، رقم(١٦٧١).

(٢) رواه مسلم مختصرًا، كتاب الحج، باب استحباب إدامة الحاج التلبية حتى يشرع...، رقم(١٢٨٢).

الذي يعظم شعائر الله فيرى أنها عظيمة في قلبه، ويقوم بما ينبغي من التعظيم لها بجوارحه؛ فإن هذا من تقوى القلوب، وعلامة على صلاح نيته وتقوى قلبه، وإذا اتقى القلب اتقت الجوارح؛ لقول النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت؛ صلح الجسد كله، وإذا فسدت؛ فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[(١)].

فعليك بتعظيم شعائر الله فإن ذلك تقوى لقلبك، وأيضًا يكون خيرًا لك عند الله عزَّ وجلَّ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون**» يعني إذا سمعتم الإقامة من خارج المسجد، وهذا يدل على أن الإقامة تسمع من خارج المسجد وهو الظاهر، وقد جاء في الحديث أن بلالاً قال للنبي ﷺ لا تسبقني بآمين[(٢)]. مما يدل على أنه يقيم في مكان يسمعه الناس فيقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة**» تمشون مشيًا عاديًّا وعليكم السكينة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم(٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم(١٥٩٩).

(٢) رواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب التأمين وراء الإمام، رقم(٩٣٧).

وفي قوله ﷺ: «**وأنتم تمشون**» دليلٌ على أنه يمشي مشيًا معتادًا، وأنه لا يقارب الخطى كما استحبه بعض أهل العلم، فإن قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة**[1]» لا يعني أنه يقارب الخطى، لكن يمشي مشيه المعتاد بدون إسراع، فإذا أتى الإنسان على هذا الوجه فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا**».

إلا أن أهل العلم قالوا: إذا خشي فوات الركعة يعني فوات الركوع، فلا بأس أن يسرع قليلاً، سرعة لا تكون سرعة قبيحة، فإنه لا بأس بذلك، لكن لا ينبغي أن تكون سرعة تقبح، يكون لها جلبة وصوت.

يستفاد من هذا الحديث فوائد منها: تعظيم شأن الصلاة، وأن الإنسان ينبغي أن يأتي إليها بأدب وخشوع وسكينة ووقار.

ومنها: أنه لا بأس أن تسمع الإقامة من خارج المسجد وعلى هذا فإذا أقام المؤذن في مكبر الصوت ليسمع من كان خارج المسجد فلا بأس.

وإن كان بعض الناس قد اعترض على هذا وقال: إنه إذا أقام من

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مسجد السوق، رقم(٤٧٧).

خارج المسجد تكاسل الناس، وصاروا لا يحضرون إلا إذا سمعوا الإقامة، وربما تفوتهم الركعة الأولى، أو أكثر حسب قربهم من المسجد وبعدهم منه.

ولكن ما دام الأمر قد صار مثله في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الإقامة تسمع من الخارج؛ فإننا نرى أنه لا بأس به، لكن الشيء الذي يُخشى منه الإثم: ما يفعله بعض الناس فينقل الصلاة نفسها عبر مكبر الصوت من المنارة، فإن هذا يشوش على من حوله، لا سيما في صلاة الليل، في الصلاة الجهرية، يشوش على أهل البيوت، ويشوش على المساجد القريبة، حتى إننا سمعنا بعض الناس إذا سمع مكبر الصوت من مسجد قريب يتابع بقلبه الإمام الذي في المسجد الثاني، وسمعنا أن بعضهم أمَّن على قراءة إمام المسجد الثاني، لما قال إمام المسجد الثاني: ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال هؤلاء: آمين، وهذا ليس ببعيد؛ لأن القلب إذا انشغل بشيء أعرض عن غيره، فإذا كانوا يتابعون قراءة المسجد المجاور، وكانت قراءة الإمام جيدة في الصوت والأداء، فإن القلب قد يلهى عن الإمام الذي بين يديه.

وقد ثبت في موطأ الإمام مالك رحمه الله أن النبي ﷺ خرج ذات ليلة وأصحابه في المسجد يصلون ويجهرون بالقراءة، فقال

عليه الصلاة والسلام: «إن المصلي يناجي ربه، فلينظر بم يناجيه به، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن»[١].

فجعل هذا أذية، ونهى عنه، والواقع شاهد بذلك، ولهذا نحن نرى أن الذين يفعلون هذا؛ يؤدون الصلاة من على المنارة عبر مكبر الصوت، نرى أنهم إذا كانوا يؤذون من حولهم فهم آثمون.

فإذا كان هذا العمل يكون فيه الإنسان إما آثمًا وإما سالمًا، فلا شك أن تركه أولى، وهو في الحقيقة لا فائدة منه؛ فالإمام إنما يصلي لأهل المسجد، ولا يصلي إلى مَن كان خارج المسجد.

ثم وفيه أيضًا أنه إذا كان الإنسان كسولاً. ثبطه الشيطان فينتظر إلى الركعة الأولى أو الثانية أو الثالثة، أو يقول له الشيطان اجلس حتى لا يبقى إلا ركعة فيحرم من الخير عن إتيان المسجد للصلاة ما دام أنه يسمع صوت قراءة الإمام وهكذا كلما أراد أن يقوم ثبطه الشيطان.

لهذا نوصي إخواننا ولاسيما الأئمة أن لا يفعلوا ذلك، وأن تسلم ذممهم ويسلم إخوانهم من أذيتهم حتى في البيوت أيضًا.

ربما بعض الناس يكون قد صلَّى ويحب أن ينام ويرتاح، قد

---

(١) رواه مالك في الموطأ(١/ ٨٠).

يكون مريضًا ساهرًا الليل كلّه فيزعجه هذا الصوت، وقد يكون المسجد قريبًا من السطوح في أيام القيظ وفيه الصبيان فيفزعهم صوت المكبر.

فالحاصل أن هذه المسألة ابتلي بها بعض الناس ـ نسأل الله أن يعافينا وإياهم ـ وصاروا يؤذون من بجوارهم من المساجد أو البيوت في أمر لا فائدة منه.

فإذا جئت والإمام راكع فكبِّر تكبيرة الإحرام وأنت قائم معتدل ثم اركع، وبذلك تدرك الركعة.

وإذا أتيت وهو قائم من الركوع فكبِّر وادخل معه واسجد معه، ولا تحسب هذه الركعة؛ لأن الإنسان إذا لم يدرك ركوع الإمام فاتته الركعة.

وإذا أتيت وهو ساجد فكبِّر للإحرام وأنت قائم ثم اسجد ولا تنتظر حتى يقوم، وإذا أتيت وهو جالس فكبِّر وأنت قائم واجلس، أي حال أدركت الإمام عليها فاصنع كما يصنع الإمام.

وإذا أتيت وهو في التشهد الأخير فانظر، فإن كان هناك جماعة فلا تدخل معه؛ لأنك لا تدرك صلاة الجماعة بإدراك التشهد، وإنما بإدراك ركعة كاملة؛ لقول النبي ﷺ: «**من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة**»

وإذا لم يكن معك جماعة، أو لا يمكنك أن تدرك مسجدًا آخر فادخل معه ولو في التشهد، ولا تحسب هذا شيئًا؛ لأنه فاتك الركوع.

وفي قوله ﷺ: «فأتموا» دليلٌ على أن المسبوق إذا قام يقضي؛ فإنه يقضي آخر صلاته لا أولها، فإذا أدرك الركعتين الأخيرتين من الظهر مثلاً وقام يقضي فإن الركعتين اللتين يقضيهما هما آخر صلاته، فلا يزيد على الفاتحة؛ لأن السنة في الركعتين الأخيرتين أن لا يزيد فيهما على الفاتحة.

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دفع من عرفة فسمع وراءه جلبة وضربًا وزجرًا للإبل وأصواتًا للإبل؛ لأنهم كانوا في الجاهلية إذا دفعوا من عرفة أسرعوا إسراعًا عظيمًا يبادرون النهار قبل أن يظلم الجو، فكانوا يضربون الإبل ضربًا شديدًا، فأومأ النبي ﷺ إليهم بسوطه، وقال: «**أيها الناس، عليكم بالسكينة**» يعني الطمأنينة والهدوء «**فإن البر ليس بالإيضاع**» يعني أن البر والخير ليس بالإيضاع، أي ليس بالإسراع. والإيضاع نوع من السير السريع.

ففي هذا دليلٌ على أن الإنسان لا ينبغي له أن يسرع إذا تقدم إلى أماكن العبادة؛ لأن الذين يدفعون من عرفة يتجهون إلى مزدلفة، وهي مكان عبادة.

وبهذا يتم المؤلف رحمه الله ما ترجم به حيث قال: يأتي إلى الصلاة، ومجالس العلم، وغيرها من العبادة بسكينة.

فإذا أتيت إلى مجالس العلم والخير، فكن ساكنًا ووقورًا مهيبًا، حتى لا تذل أمام الناس، وحتى يكون تعظيمك لهذه المجالس من تعظيم الله عزَّ وجلَّ، والله الموفق.

* * *

٩٤ ـ بابُ إكرام الضّيف

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله: باب إكرام الضيف.

الضيف: هو الذي ينزل بك مسافرًا، لأجل أن تتلقاه بالإيواء والطعام والشراب وما يحتاج إليه.

الضيافة: خلق فاضل قديم منذ عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، إن لم يكن قبل ذلك.

وسيذكر المؤلف إن شاء الله في الأحاديث أحاديثَ متعددة حول إكرام الضيف، وإن إكرامه من الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكنه ـ رحمه الله ـ كعادته يبدأ بالآيات الكريمة؛ لأن القرآن مقدم على السنة، فهو كلام الله والحديث كلام رسول الله ﷺ، وكلاهما حق

يجب تصديقه إن كان خبرًا، وامتثاله إن كان طلبًا.

فبدأ بالآيات رحمه الله فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ هل أتاك؟: الاستفهام هنا للتشويق من أجل أن ينتبه المخاطب، والخطاب في قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ إما للرسول ﷺ وإما له وللأمة؛ أي لكل من يصح خطابه.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا . . .﴾ وهؤلاء الضيف ملائكة أرسلهم الله عزَّ وجلَّ إلى إبراهيم، ثم إلى لوط.

وقوله: ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ يعني الذين أكرمهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ قال العلماء إن قولهم: سلامًا يعني: نسلم سلامًا، وإن قوله: سلامٌ يعني: عليكم سلامٌ.

والثانية أبلغ من الأولى؛ لأن المشروع لمن حُيي بتحية أن يحيى بأحسن منها أو بمثلها كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

وإنما كانت الثانية أبلغ من الأولى؛ لأن الأولى جملة فعلية، والثانية جملة اسمية، تفيد الثبوت والاستمرار.

ثم قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ولم يقل: أنتم قوم؛ لأن أنتم صريح في الخطاب، وهذا قد يكون مستبشعًا عند بعض الناس، فكان من

حسن معاملته لضيفه أن قال ﴿ قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ .

وكلمة ﴿ قَوۡمٌ ﴾ يمكن أن يكون التقدير لها: هم قوم، أو أنتم قوم، أو هؤلاء قوم، ليست في الصراحة كقوله أنتم قوم، فلهذا حذف المبتدأ وصارت: قوم منكرون. ومعنى كونهم منكَرِين: أنه لا يعرفهم؛ لأنهم أول مرة يلتقي بهم.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ وكان عليه الصلاة والسلام كريمًا، ومعنى راغ: أي ذهب بخفية وسرعة ﴿ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ إلى بيته ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ ﴾ جاء بعجل؛ وهو صغار البقر؛ لأن لحمه ترف ولذيذ، وكونه سمينًا يكون أحلى للحمه وأطيب، وفي الآية الأخرى: ﴿ حَنِيذٍ ﴾ ، أي محنوذ يعني مشوي لم يخرج من طعمه شيء وهذا ألذ ما يكون من اللحم.

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ ولم يضعه بعيدًا عنهم فيقول: تقدموا إلى الطعام، ولكن هو الذي قربه؛ لئلا يكون عليهم عناء ومشقة، ومع ذلك لم يقل: كلوا. لم يأمرهم أمرًا، ولكن قال: ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ وهذا عرض وليس بأمر، وهذا أيضًا من حسن معاملته لضيوفه.

ثم إن هؤلاء الضيوف ذهبوا إلى لوط بصورة شبان مرد ذوي جمال وفتنة، وكان قوم لوط والعياذ بالله قد ابتلوا بداء اللواط، وهو إتيان الذكر الذكر، فلما ذهبوا إلى لوط انطلق بعضهم إلى بعض

يخبر بعضهم بعضًا ويقول: جاء إلى لوط مردان شبان ذوو جمال، فجاءوا يُهرعون إليه، أي يسرعون.

﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ يعني كانوا يعملون الفاحشة وهي اللواط.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ ﴾ قال بعض العلماء: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي ﴾ يشير إلى بنات القوم ما هن بناته الخاصة من صلبه، ولكنه يعني بذلك بنات قومه؛ لأن النبي لقومه بمنزلة الأب لهم، كأنه يقول: عندكم النساء، وهذا كقوله في آية أخرى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، يعني من النساء ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾.

الحاصل أنه عليه الصلاة والسلام قال لهم: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾.

وقوله: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ ﴾ هذا من باب التفضيل الذي ليس في الجانب المفضل عليه منه شيء؛ لأن إتيان الذكور ليس فيه طهارة، كله خبث وخبائث، كما قال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ولكن ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ ﴾ لأن فروج النساء تحل بعقد النكاح.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ ولكن لم يكن منهم رجلٌ رشيد، والعياذ بالله.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، يعني تعلم أننا نريد هؤلاء الشباب الذين جاءوا إليك.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، فقالت الرسل: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، ثم أرشدوه إلى أن يسري بأهله ويدع البلدة.

وفي سورة القمر قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٣ ـ ٣٧]. قيل: إن الملائكة صفقوهم على وجوههم فعميت أبصارهم، وقيل: إن الله أعمى أبصارهم في نفس الحال.

وعلى كل حال فإن قوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ يدل على أن الضيوف كانوا مكرمين عند لوط، كما هم مكرمون عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

والحاصل أنه إذا نزل بك ضيف؛ فإنه يجب عليك أن تضيفه يومًا وليلة، ولكن لا تفعل كما يفعل السفهاء، تذهب وتتكلف

وتصنع وليمة كبيرة، حتى إنا نسمع أنه عند الناس إذا نزل الضيف ذهب صاحب البيت من أجل أن يذبح له ذبيحة، فيقول الضيف: لا تذبح. عليَّ الطلاق لا تذبح. فيقول الثاني: عليَّ الطلاق أن أذبح، هذا خطأ ومنكر، إما أن تذبح أو لا تذبح لكن لا حاجة إلى اليمين.

وإذا اضطررت إلى اليمين فليس هناك حاجة إلى اليمين بالطلاق؛ لأن الذي يحلف بالطلاق أمره ليس بهين، فالأئمة الأربعة: مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وجمهور أتباعهم يرون أن الحلف بالطلاق طلاقٌ إذا حنث فيه الإنسان، يعني إذا قلت: عليَّ الطلاق لا تفعل كذا ففعل طلقت زوجتُك ولو أردتَ اليمين، هذا مذهب جمهور الأمة وجميع الأئمة المتبوعين من هذه الأمة. إذًا المسألة خطيرة وتهاون الناس اليوم بهذه المسألة خطأ كبير.

ما أسرع أن يقول: عليَّ الطلاق أن أفعل، عليَّ الطلاق لا أفعل، أو امرأتي طالق إن فعلت، أو امرأتي طالق إن لم أفعل، وهذا خطأ عظيم. كيف تقول هذا الكلام وأكثر الأئمة يرون أنك إذا حنثت طلقت زوجتك، لهذا يجب على الإنسان أن لا يتهاون في هذا الأمر ولا يحلف بالطلاق، بل إذا كان هناك حاجة فليحلف بالله سبحانه وتعالى، وإلا فلا يحلف، والله الموفق.

١/٧٠٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخِرِ؛ فَلْيُكرِمْ ضَيفَهُ، وَمَنْ كانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ؛ فليَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كانَ يؤمِنُ بالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ» متفقٌ عليه[1].

٢/٧٠٧ - وعن أبي شُرَيْح خُوَيلدِ بن عمرو الخُزَاعِيِّ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليومِ الآخِرِ؛ فَلْيُكرِمْ ضيفَهُ جَائِزَتَهُ» قالوا: وما جَائِزَتُهُ يا رسول الله؟ قال: «يَومُه ولَيْلَتُهُ، والضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أيَّامٍ، فما كان وَرَاءَ ذلكَ فهو صَدَقَه عليه» متفقٌ عليه[2].

وفي رواية لمسلمٍ: «لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أن يُقِيمَ عند أخِيه حتى يُؤْثِمَهُ» قالوا: يا رسول الله، وكَيْفَ يُؤْثِمُهُ؟ قال: «يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلاَ شَيءَ لَهُ يَقْرِيهِ بِهِ»[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، رقم(٦١٣٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف. . . ، رقم(٤٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، رقم(٦١٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف. . . ، رقم(٤٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب اللقطة، باب الحث على إكرام الجار والضيف. . . ، رقم(٤٨) [١٥].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في باب الضيافة وإكرام الضيف، حينما ذكر آيتين من كتاب الله بل آيات في موضعين، ذكر الأحاديث. وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه»، وهذا من باب الحث والإغراء على إكرام الضيف، يعني: أن إكرام الضيف من علامة الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن تمام الإيمان بالله واليوم الآخر.

وذلك أن الذي يكرم ضيفه يثيبه الله تعالى على ذلك يوم القيامة، وربما أثابه يوم القيامة وفي الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠]، فيثيبه الله في الدنيا بالخلف يخلف عليه، وفي الآخرة بالثواب، ولهذا قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه».

وإكرام الضيف يختلف بحسب أحوال الضيف، فمن الناس من هو من أشراف القوم ووجهائهم فيُكرم بما يليق به، ومن الناس من هو من وسط القوم فيُكرم بما يليق به، ومنهم مَنْ دون ذلك.

فالحاصل أن النبي عليه الصلاة والسلام أطلق الإكرام فيشمل كل الإكرام، فمن الناس من إذا نزل بك ضيفًا لا يرضيه أن تأتي له بطعام عليه دجاجتان وما أشبه ذلك، يحتاج إلى أن تأتي له بطعام

عليه ذبيحة، ويكون من إكرامه أيضًا أن تدعو جيرانك وما أشبه ذلك. ومن الناس مَنْ هو دون ذلك.

الحاصل أن النبي ﷺ لم يقيد الإكرام بشيء؛ بل أطلق، فيكون راجعًا إلى ما يعده الناس إكرامًا.

قال: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليصل رحمه»، وفي حديث آخر «فليكرم جاره».

«فليصل رحمه»: الرحم هم الأقارب، وكلما كان القريب إليك أقرب؛ كان حقه أوجب، فعلى المرء أن يصل رحمه، ولم يبيّن النبي ﷺ بماذا يصله؟ فيرجع أيضًا إلى العرف، فمن الأقارب من تصله بالزيارة والإكرام البدني، ومن الأقارب من تصله بإعطاء المال لحاجته لذلك، ومن الأقارب من تكرمه بالطعام والكسوة، كل بحسب حاله، المهم أن تكرم أقاربك بما يعد إكرامًا.

فمثلاً إذا كان قريبك غنيًّا كريمًا فهذا لا يمكن أن ترسل إليه طبقًا من طعام، إنما تكرمه بالزيارة والكلام اللين وما أشبه ذلك. أماإذا كان قريبك فقيرًا فطبق الطعام أحب إليه من غيره، فترسل له طبقًا من الطعام، أما إذا كان قريبك يحتاج إلى مال فالأفضل أن ترسل له المال، وهلم جرًّا. فكل إنسان يكرم بما يليق بحاله.

قال: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيرًا أو

ليصمت»، هذه الحكمة ليتنا نسير عليها في حياتنا. «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيرًا أو ليصمت»: قد يكون الخير في الكلام. وقد يكون في المقصود منه، في المقصود من الكلام يكون الخير، فمثلاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم مسألة من مسائل العلم والدين، الكلام هنا خير في نفسه.

والكلام الآخر الذي ليس في نفسه خير من حيث هو، لكن تتكلم به من أجل أن تدخل الأنس على مُجالسك وأن تشرح صدره، هذا أيضًا خير، وإن كان نفس الكلام ليس مما يتقرب به إلى الله، لكنه ليس إثمًا، وتقصد بذلك أن توسع صدر جليسك وأن تدخل عليه الأنس والسرور، فهذا أيضًا من الخير.

وعلم من هذا أن من لم يقل الخير؛ فإن إيمانه بالله واليوم الآخر ناقص، فكيف بمن يقول الشر؟ كيف بمن أصبح يأكل لحوم الناس ـ والعياذ بالله ـ ويسعى بينهم بالنميمة، ويكذب ويغش؟ بل كيف من أصبح يؤلب على أهل العلم ويسب أهل العلم، ويذمهم بأمر هم فيه أقرب إلى الصواب مما يدعي أو مما ظن؟ فإن هذا أعظم وأعظم؛ لأن الكلام في أهل العلم ليس كالكلام في عامة الناس.

الكلام في عامة الناس ربما يجرح الرجل نفسه، لكن الكلام في أهل العلم جرح في العلماء وجرح فيما يحملونه من الشريعة؛ لأن

الناس لن يثقوا بهم إذا كثر القول فيهم والخوض فيهم، ولهذا يجب عند كثرة الكلام وخوض الناس في أمر من الأمور أن يحرص الإنسان على كف لسانه، وعلى عدم الكلام حتى لو سئل؛ يقول: نسأل الله الهداية، نسأل الله أن يهدي الجميع، نسأل الله أن يجعل الخير في الواقع وما أشبه ذلك.

أما أن يتكلم ويطلق لسانه في أمور ليس لها أصل ألبتة، فهذا من عدم الإيمان بالله واليوم الآخر؛ ولا يكفر الإنسان بهذا لكن إيمانه ناقص؛ لأن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيرًا أو ليصمت»، وكما قيل: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وقيل أيضًا في الحكمة: الصمت حكمة وقليل فاعله. وقيل أيضًا: من صمت نجا ومن تكلم فهو على خطر.

فلهذا الزم الصمت إلا في شيء ترى أنه خير، فالخير مطلوب، والله الموفق.

* * *

٩٥ـ باب استحباب التبشير والتهنئة بالخير

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]. وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وقال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. **والآيات في الباب كثيرة معلومة.**

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين، باب استحباب التبشير والتهنئة بالخير.

البشارة تكون في الأمور التي تسر، وسميت بذلك لأن الإنسان إذا بشر بما يسره ظهر أثر ذلك في وجهه وبشرته، وقد تكون البشارة

فيما يسوء مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

والبشارة بما يسر تكون بشارة فيما يسر في الآخرة، وفيما يسر في الدنيا؛ أما البشارة فيما يسر في الآخرة فكثيرة، ذكرها الله في القرآن في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، وقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]، هذا كله فيما يتعلق بأمور الآخرة.

ومن الأمور التي تبشر بالخير في أمور الآخرة: الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له، مثل أن يرى إنسان رؤيا فقال ـ مثلاً ـ له في المنام: بشّر فلانًا بأنه من أهل الجنة فيبشره، فهذه بشرى.

كذلك أيضًا الإنسان إذا رأى من نفسه أنه ينقاد للخير والعمل الصالح ويرغب فيه ويحبه، وأنه يكره الشر، فهذه أيضًا بشرى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

وأما البشارة فيما يتعلق بأمر الدنيا فمثل قوله تعالى عن إبراهيم

الخليل: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣]، وفي آية أخرى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١]، والذي بشر به في الآية الأولى غير الذي بُشر به في الآية الثانية التي فيها: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾، هذا إسحاق، والتي فيها: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾، هذا إسماعيل، عليهما السلام.

إسحاق أبو بني إسرائيل؛ لأن ابنه يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل الذي من ذريته موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وأكثر الأنبياء المذكورين في القرآن كلهم من ذرية إسرائيل.

أما التي ذكر الله فيها ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ - وهي التي في سورة الصافات - فهذا إسماعيل أبو العرب، وليس من ذريته رسول إلا رسول واحد؛ لكنه ختم جميع الرسالات وبُعث إلى الناس كافة من بعثته إلى يوم القيامة، وغيره من الأنبياء يبعث إلى قومه خاصة. هذا الرسول الذي من بني إسماعيل هو محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وكذلك قال تعالى عن امرأة إبراهيم: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ هذا أيضًا بشارة للأنثى.

فالحاصل أن البشارة تكون في أمور الآخرة وفي أمور الدنيا، وينبغي للإنسان أن يكون متفائلاً مستبشرًا بالخير، وألا يرى الدنيا

أمامه كالحة مظلمة فيستحسر ويقنط.

وينبغي للإنسان أيضًا إذا حصل له خير أن يهنئ به وأن يُبشر به إذا كان مستقبلاً، يُهنئ بالخير إذا وقع، ويُبشر بالخير في المستقبل. بشّر أخاك، أدخل السرور عليه، حتى لو رأيت مثلاً إنسانًا مغتمًّا قد ضاقت عليه الدنيا وتكالبت عليه الأمور، فقل له: أَبْشِرْ بالفرج؛ لأن النبي ﷺ يقول: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»[1]، هذا كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، لا ينطق عن الهوى.

فإذا رأيت أخاك مكروبًا، فقل له: أبشر. الفرج قريب، وإذا رأيته في عسرة فقل له: أبشر. اليسر قريب، وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لن يغلب عسر يسرين» أين؟ في ألم نشرح لك صدرك ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، العسر ذكر مرتين واليسر ذكر مرتين، لكن حقيقة الأمر أن العسر لم يذكر إلا مرة واحدة واليسر ذُكر مرتين، لماذا؟ قال العلماء إذا تكررت الكلمة معرفة بأل فهي واحدة، وإذا جاءت غير معرفة بأل فهي اثنان.

العسر كرر مرتين لكن بأل، فيكون العسر الثاني هو الأول، اليسر كرر مرتين لكن بدون أل فيكون اليسر الثاني غير اليسر الأول،

---

(١) رواه أحمد في المسند(١/ ٣٠٧).

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لن يغلب عسر يسرين» أدخل السرور على أخيك المكروب قل له: انتظر الفرج، كلما اشتدت الأمور فانتظر الفرج.

ربمــــا تكــره النفــوس مــــن الأمــر

لـــــه فــــرجـــــة كحـــــل العقـــــال

يُقال إن الحجاج بن يوسف الثقفي وهو رجلٌ معروف ـ نسأل الله أن يعفو عنه ـ، رجل ظالم له سيئات كثيرة، تكلم عنده أحد الناس وقال له كلمة استنكرها الحجاج، وكان الحجاج جيدًا في اللغة العربية، فهو الذي شكل القرآن ـ وهذه من حسناته ـ، قال له الحجاج: ليس هذا في اللغة العربية، فُعلة لا تأتي في اللغة العربية، قال: هكذا سمعت من الأعراب. وكانوا يأخذون اللغة من الأعراب؛ لأن الأعراب في البادية ليسوا في المدن، والمدن دخل فيها الفرس والروم الذين أسلموا فتغير اللسان. فقال الحجاج له: اذهب عند الأعراب وائتني بشاهد من كلام العرب يدل على أن فُعلة موجودة في اللغة العربية، ولك مهلة كذا وكذا، فإن لم تأتني فأنا أضرب عنقك.

ذهب الرجل مكروبًا والحجاج ينفذ ما يقول، وذهب يطلب من الأعراب، فسمع أعرابيًا يقول:

ربمـــا تكـــره النفـــوس مـــن الأمـــر

لـــــه فُــــرجـــــةٌ كحـــــل العقـــــال

ففرح بها فرحًا عظيمًا وجاء بها إلى الحجاج، فبينما هو في الطريق قيل له: إن الحجاج قد مات، فقال: والله ما أدري هل أنا أشد فرحًا بهذه الكلمة التي وجدتها عند الأعرابي أو بموت هذا الرجل.

فالحاصل أن الإنسان ينبغي له أن يدخل السرور والبشرى على إخوانه حتى يفرحوا، وينشطوا، ويؤملوا، وينتظروا الفرج. نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن له البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

* * *

١/٧٠٨ - عن أبي إبراهيمَ - وَيُقَال أبو محمد، ويقال أَبُو مُعَاوِيَةَ - عبدِ اللهِ بن أبي أَوْفَى رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ بَشَّرَ خَدِيجَةَ رضي الله عنها، بِبَيْتٍ في الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ. متفقٌ عليه[١].

«الْقَصَبُ» هُنَا: اللُّولُؤ المُجَوَّفُ. و«الصَّخبُ»: الصِّيَاحُ وَاللَّغطُ. «وَالنَّصَبُ»: التَّعَبُ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة، رقم(٣٨١٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، رقم(٢٤٣٣).

٢/٧٠٩ - وعن أبي موسى الأشْعَرِيّ رضي الله عنه أنَّهُ تَوَضَّأ في بَيْتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فقال: لألْزَمَنَّ رسول الله ﷺ، وَلأكُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هذا، فَجَاءَ المَسْجِدَ، فَسَألَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: وَجَّهَ هاهُنَا، قال: فَخَرَجْتُ عَلَى أثَرِهِ أسْألُ عَنْهُ، حَتَّى دَخَلَ بِئْر أرِيسٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابَ حَتَّى قَضَى رسول الله ﷺ حَاجَتَهُ وَتَوضَّأ، فقُمْتُ إلَيْه، فإِذَا هَوَ قَدْ جَلَسَ عَلَى بئْرِ إرِيسٍ، وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا، وَكشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلاهُمَا في البئْرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ البَابِ فَقُلْتُ: لأكُونَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ الله ﷺ اليَوْمَ، فَجَاءَ أبُو بَكْرٍ رضيَ الله عنه فَدَفَعَ البابَ فَقُلْتُ: مَنْ هذا؟ فَقَالَ: أبُو بَكْرٍ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقُلتُ: يا رَسُولَ الله، هذَا أبُو بَكْرٍ يَسْتَأذِنُ، فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بالجَنَّة»، فَأقْبَلْتُ حَتَّى قُلْتُ لأبي بَكْرٍ: ادْخُلْ وَرَسُولُ الله يُبَشِّرُكَ بِالجَنَّةِ، فَدَخَلَ أبُو بَكْرٍ حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَهُ في القُفِّ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ في البئْرِ كَمَا صَنَعَ رَسُولُ الله ﷺ، وَكَشَفَ عنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَجَلَسْتُ، وقَد تَركْتُ أخي يَتَوضَّأ وَيَلْحَقُني، فَقُلْتُ: إنْ يُرِدِ الله بِفُلانٍ - يُرِيدُ أخَاهُ - خَيْرًا يَأتِ بِهِ، فَإِذَا إنْسَانٌ يُحَرِّكُ البَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وقُلْتُ: هذا عُمَرُ يَسْتَأذِنُ، فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بالجَنَّةِ»، فَجِئتُ عُمَرَ، فَقُلْتُ: أذِنَ وَيُبَشِّرُكَ رَسُولُ الله ﷺ بِالجَنَّةِ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ في

القُفِّ عَنْ يَسَارِهِ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ في البِئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ الله بِفُلانٍ ـ يُرِيدُ أَخَاهُ ـ خَيْرًا يَأْتِ بِهِ، فَجَاءَ إِنْسَانٌ فَحَرَّكَ البَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، وجِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ مَعَ بَلْوى تُصِيبُهُ»، فَجِئْتُ فَقُلْتُ: ادْخُلْ ويُبَشِّرُكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصيبُكَ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ القُفَّ قَدْ مُلِىءَ، فَجَلَسَ وِجَاهَهُمْ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ. قَالَ: سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ: فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُم. متفقٌ عليه[1].

وزادَ في روايةٍ: «وَأَمَرَنِي رسولُ اللهِ ﷺ بحِفْظِ البَابِ. وَفِيها: أَنَّ عُثْمَانَ حِينَ بَشَّرَهُ حَمِدَ الله تَعالى، ثُمَّ قَالَ: الله المُسْتَعَانُ».

قوله: «وَجَّهَ» بفتحِ الواوِ وتشديدِ الجيمِ، أيْ: تَوَجَّهَ. وقوله: «بِئْرِ أَرِيسٍ»: هو بفتحِ الهمزةِ وكسرِ الراءِ، وبعْدَهَا ياءٌ مُثَنَّاةٌ مِن تحت سَاكِنَةٌ، ثُمَّ سِينٌ مهمَلَةٌ، وهو مصروفٌ، ومنهمْ مَنْ مَنَعَ صَرْفَهُ. «والقُفُّ» بضمِ القافِ وتشديد الفاءِ: هُوَ المَبْنِيُّ حَوْلَ البِئْرِ. قوله: «عَلَى رِسْلِكَ» بكسر الراء على المشهور، وقيل بفتحها، أيْ: ارْفُقْ.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ في باب استحباب التبشير بالخير

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: لو كنت...، رقم(٣٦٧٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم(٢٤٠٣).

والتهنئة به آيات سبق الكلام عليها، وبيَّنا أن البشارة قد تكون بخير في الدنيا، أو بخير في الآخرة.

ثم ذكر حديثين: حديث أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن النبي ﷺ بشَّر خديجة رضي الله عنها ببيت في الجنة وكذلك حديث أبي موسى الأشعري وسيأتي إن شاء الله.

يقول: ببيت في الجنة من قصب، ليس فيه صخب ولا نصب. ولكن القصب الذي بُني منه قصر خديجة في الجنة ليس كالقصب الذي في الدنيا. الاسم هو الاسم والحقيقة غير الحقيقة، كما أنه في الجنة نخل ورمان وفاكهة ولحم طير وغير ذلك، فالاسم هو الاسم والحقيقة غير الحقيقة.

وهذا بابٌ يجب على الإنسان أن يتفطن له؛ فإن أمور الغيب التي لها نظير في الدنيا لا تماثل نظيرها في الدنيا.

فمثلاً في صفات الله عزَّ وجلَّ، لله عزَّ وجلَّ وجه كريم، موصوف بالجلال والإكرام، ونحن أيضًا لنا وجه، فالأمر لا يختلف في الاسم، لكن قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فوجهه يليق بجلاله وعظمته، ولا يمكن الإحاطة به؛ لا وصفًا، ولا تصورًا في الذهن، ولا نطقًا باللسان، فهو أعظم وأجل من أن تحيط به الأوصاف، وهكذا بقية صفاته عزَّ وجلَّ.

اسمها يوافق الاسم الذي نتصف به، ولكن الحقيقة غير الحقيقة.

كذلك أيضًا الجنة فيها ـ كما قلت ـ عسل، وماء، وخمر، ولحم، ونساء، وفاكهة، ورمان، وغير ذلك، لكن ليست كالذي في الدنيا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال في القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، ولو كانت مثل ما في الدنيا لكنا نعلمها، لكنها ليست مثلها ولا قريبًا منها.

وكذلك قال النبي ﷺ فيما يرويه عن الله أنه قال: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(١) نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين ممن أعد الله لهم ذلك.

فخديجة رضي الله عنها بشَّرها النبي ﷺ بواسطة جبريل، هو الذي أخبر الرسول ﷺ: بشَّرها ببيت في الجنة من قصب، ولكن ليس القصب الذي في الجنة كالقصب الذي في الدنيا، ولا القصب الذي في الدنيا كالقصب الذي في الجنة، ثم قال: «**ليس فيه صخب ولا نصب**».

والصخب: الأصوات المزعجة الشديدة، والجنة ليس فيها

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم(٣٢٤٤)، ومسلم، كتاب الجنة، باب منه، رقم(٢٨٢٤).

صخب وأهلها كلهم ليس عندهم صخب ولا نصب ولا كلام لغو: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣].

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، كلامهم طيب؛ لأنهم جوار الطيب جلَّ وعلا، فهم طيبون في جنات عدن، مساكن طيبة عند الطيب جلَّ وعلا، كلهم طيبون، كما أن قلوبهم في الدنيا طيبة، وأفعالهم طيبة؛ لأن الله لا يقبل إلا الطيب، وأفعالهم مقبولة، فهم كذلك في الآخرة.

فقصر خديجة ليس فيه صخب، وليس فيه نصب، وليس فيه تعب، لا يحتاج إلى كنس القمامة ولا غيره؛ كله طيب. وهذه بشارة لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

وأم المؤمنين خديجة هي أول امرأة تزوجها النبي ﷺ، تزوجها وهو ﷺ ابن خمس وعشرين سنة، ولها أربعون سنة من زوج سابق قبله، وولدت له بناته الأربع وأولاده الثلاثة أو الاثنان، ولم يتزوج عليها أحدًا حتى ماتت رضي الله عنها، وكانت امرأة عاقلة ذكية حكيمة، لها مآثر طيبة معروفة يجدها من يراجع ترجمتها في كتب التاريخ، وكانت تسامي عائشة رضي الله عنها، يعني أنها هي وعائشة أفضل نساء الرسول عليه الصلاة والسلام وأحب نسائه إليه.

واختلف العلماء أيهما أفضل؛ فقيل: عائشة، وقيل: خديجة،

والصحيح أن لكل واحدة منهما مزية تختص بها، لا تشاركها فيها الأخرى.

لعائشة رضي الله عنها في آخر الرسالة، وبعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام، لها من نشر الرسالة والعلم والشريعة ما ليس لخديجة.

وخديجة لها في أول الرسالة ومناصرة النبي ﷺ ومعاضدته ما ليس لعائشة، فلكل واحدة منهما مزية.

أما الفضيلة فكفى بهما فخرًا أنهما أحب نساء النبي ﷺ إليه، ويكفي هذا، وأما الفضائل فكل واحدة لها فضيلة.

فعائشة ـ رضي الله عنها ـ لها من المزايا ما أشرنا إليه من قبل، وخديجة ـ رضي الله عنها ـ لها من المزايا ما أشرنا إليه من قبل، وأما الفضل عند الله عزَّ وجلَّ فيكفي كما قلت: أنهما أحب نساء النبي ﷺ إليه.

ويذكر أن رجلاً من أهل السنة ورجلاً من الرافضة، والرافضة يبغضون عائشة بغضًا شديدًا، والعياذ بالله، وأهل السنة يحبون عائشة، والرافضة يغلون في خديجة غلوًّا شديدًا خارجًا عن الشرع، يبغضون هذه بغضًا شديدًا ـ أي عائشة ـ ويغلون في خديجة غلوًّا شديدًا.

وأهل السنة والجماعة يحبونهما جميعًا ويعترفون بالفضل لهما جميعًا: لعائشة وخديجة.

تنازع رافضي وسني، يقول الرافضي: الأفضل خديجة، ويقول السني: الأفضل عائشة على قول بعض العلماء الذين ذهبوا وأطلقوا القول بأفضلية عائشة، والصحيح ما أشرت إليه سابقًا أن كل واحدة منهما لها مزية.

وقد جاء رجلان إلى ابن الجوزي ـ صاحب التبصرة المعروف ـ قالا: إنا ارتضيناك حكمًا. أيهما أفضل علي أو أبوبكر؟ قال: أفضلهما من كانت ابنته تحته.

من الأفضل الآن؟ الكلام محتمل إن أراد ابنته تحته ﷺ فالأفضل أبوبكر، وإن أراد من ابنة الرسول تحته فالأفضل علي.

فذهب الرجلان، كل يقول: حكم لي، وهذا يقول حكم لي؛ لأن الضمير يحتمل الرجوع إلى هذا وهذا، وهذا من ذكاء ابن الجوزي وتخلصه.

والخلاصة: أن أبابكر أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ بإجماع أهل السنة حتى علي بن أبي طالب يقول على منبر الكوفة: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، يعلن بهذا إعلانًا في خلافته لا يخشى أحدًا، لكن الرافضة تحرف الكلم عن مواضعه، ومن

المعلوم أن ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ من أهل السنة فلا شك أن أبا بكر عنده أفضل من علي؛ لكنه أتى بهذا الكلام المحتمل حتى يسلم من شر هذا الرافضي. والله أعلم.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أنه في يوم من الأيام توضأ في بيته وخرج يطلب النبي ﷺ ويقول: لألزمن رسول الله ﷺ يومي هذا. ألزمن يعني أكون معه ذاهبًا وآتيًا.

وفي هذا دليلٌ على أن الإنسان ينبغي إذا خرج من بيته أن يكون متوضئًا لأجل أن يكون مستعدًّا للصلاة وهو خارج البيت، فإذا جاء وقت الصلاة وهو في مكان لا يوجد فيه ماء كان على طهارة وصلى، وإذا حضرت جنازة صلَّى عليها وهو خارج البيت، أو على الأقل يكون على طهر؛ لأن كون الإنسان على طهر أفضل من أن يكون على غير طهر، وربما جاءه الموت فيكون على طهر، فالإنسان ينبغي له ما استطاع أن يكون على طهر لا سيما إذا خرج من بيته.

فخرج رضي الله عنه يطلب النبيَّ ﷺ فأتى المسجد؛ لأن الرسول ﷺ إما في المسجد وإما في بيته في مهنة أهله، وإما في مصالح أصحابه عليه الصلاة والسلام، فلم يجده في المسجد، فسأل عنه فقالوا: وجَّه هاهنا، وأشاروا إلى ناحية أريس وهي بئر

حول قباء، فخرج أبو موسى في إثره حتى وصل إلى البئر، فوجد النبي ﷺ هنالك فلزم الباب رضي الله عنه.

فقضى النبي ﷺ حاجته وتوضأ ثم جلس على قُفّ البئر يعني على حافته، ودلى رجليه وكشف عن ساقيه. والظاهر والله أعلم أنه كان في ذلك الوقت في حر، وهذا البئر فيه ماء، والماء قريب وحوله الأشجار والنخل والظلال، وعادة أن الإنسان إذا حصل له مثل ذلك فعل مثل هذا الفعل؛ يعني يكشف عن ساقيه ليبرد، ويأتيه من برودة الماء الذي في البئر، وفي هذا الظل.

فجلس عليه الصلاة والسلام متوسطًا للقف أي حافة البئر، ودلّى رجليه، وكشف عن ساقيه، وكان أبو موسى على الباب يحفظه أي باب البئر، فاستأذن أبو بكر رضي الله عنه، لكنه لم يأذن له أبو موسى حتى يستشير النبي ﷺ، فقال للنبي ﷺ: هذا أبو بكر يستأذن، فقال: ائذن له وبشِّره بالجنة، فأذن له وقال له: يبشرك رسول الله ﷺ بالجنة.

ويا لها من بشارة، يبشره بالجنة ثم يأذن له أن يدخل ليكون مع الرسول ﷺ.

فدخل ووجد النبي ﷺ متوسطًا القفّ فجلس عن يمينه؛ لأن النبي ﷺ يعجبه التيامن في كل شأنه، فجلس أبو بكر على يمينه

وصنع مثل ما صنع النبي ﷺ؛ دلى رجليه في البئر، وكشف عن ساقيه كراهة أن يخالف النبي ﷺ؛ في هذه الجلسة، وإلا فليس من المشروع أن الإنسان يجلس على بئر ويدلي رجليه ويكشف عن ساقيه، لكنه لا يحب أن يجلس مع النبي ﷺ على غير الهيئة التي كان النبي ﷺ عليها.

فقال أبو موسى ـ وكان قد ترك أخاه يتوضأ ويلحقه ـ: إن يرد الله به خيرًا يأت به، وإذا جاء واستأذن فقد يحصل له أن يُبشر بالجنة، ولكن استأذن الرجل الثاني، فجاء أبو موسى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: هذا عمر قال: ائذن له وبشِّره بالجنة، فأذن له، وقال له: يبشرك رسول الله ﷺ بالجنة.

فدخل فوجد النبي ﷺ وأبا بكر على القف، فجلس عن يسار الرسول عليه الصلاة والسلام والبئر ضيقة، ليست واسعة كثيرًا، فهؤلاء الثلاثة كانوا في جانب واحد.

ثم استأذن عثمان وصنع أبو موسى مثل ما صنع من الاستئذان فقال النبي ﷺ: «ائذن له وبشِّره بالجنة مع بلوى تصيبه»، فأذن له وقال: يبشرك الرسول ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك، فاجتمع في حقه نعمة وبلوى، فقال رضي الله عنه: الحمد لله المستعان، الله المستعان على هذه البلوى، والحمد لله على هذه البشرى، فدخل

فوجد القف قد امتلأ، لأنه ليس واسعًا كثيرًا، فذهب إلى الناحية التي تجاههم وجلس فيها، ودلى رجليه، وكشف عن ساقيه.

أوَّلها سعيد بن المسيب ـ أحد كبار التابعين ـ على أنها قبورهم؛ لأن قبور الثلاثة كانت في مكان واحد، فالنبي ﷺ وأبوبكر وعمر كلهم كانوا في حجرة واحدة، قبورهم واحدة، دفنوا جميعًا، وهم في الدنيا يذهبون جميعًا ويرجعون جميعًا، ودائمًا يقول النبي ﷺ: ذهبت أنا وأبوبكر وعمر، وجئت أنا وأبوبكر وعمر، فهما صاحباه والملازمان له، ويوم القيامة يخرجون من قبورهم جميعًا، فهم جميعًا في الدنيا والآخرة.

فجلس عثمان رضي الله عنه تجاههم، وبشره ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبه، وهذه البلوى هي ما حصل لعثمان رضي الله عنه من اختلاف الناس عليه وخروجهم عليه، وقتلهم إياه في بيته رضي الله عنه، حيث دخلوا عليه في بيته في المدينة وقتلوه وهو يقرأ القرآن، وكتاب الله بين يديه.

ويذكر بعض المؤرخين أن قطرة من الدم نزلت على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، والله أعلم.

لكن على كل حال فإن عثمان رضي الله عنه كان معروفًا بكثرة

القراءة والتهجد، فدخل عليه أولئك المعتدون الظالمون فقتلوه، فقتل شهيدًا.

وبذلك تحقق قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما صعد على جبل أحد - وهو جبل معروف كبير في المدينة - هو وأبوبكر وعمر وعثمان، وارتج بهم الجبل، من آيات الله، ليس ارتجاج نقمة وخسف، لكن ارتجاج فرح، فلما ارتج بهم قال النبي ﷺ له: «**اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»[(١)] فالنبي رسول الله عليه الصلاة والسلام، والصديق أبو بكر، والشهيدان: عمر وعثمان.

وكلاهما رضي الله عنهما قتل شهيدًا؛ أما عمر فقتل وهو متقدم لصلاة الفجر بالمسلمين، قتل في المحراب، وأما عثمان فقتل وهو يتهجد في بيته في صلاة الليل، فرضي الله عنهما، وألحقنا وإياكم بهما في دار النعيم المقيم.

هذه القصة فيها بشارة؛ لأن الرسول قال: «**ائذن له وبشره بالجنة**»، لأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم جميعًا، وجعلنا وإياكم ممن يحشرون في زمرة محمد ﷺ.

* * *

(١) رواه البخاري، كتاب فضل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: لو كنت..، رقم(٣٦٧٥).

٣/٧١٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنهُ قال: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رسولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَنَا أبُو بَكْرٍ وعُمَرُ رضيَ اللهُ عنهما في نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ بينِ أظْهُرِنَا فَأبْطأَ عَلَيْنَا، وَخَشِينَا أنْ يُقْتَطعَ دُونَنَا وَفَزِعْنَا فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أوَّلَ مَنْ فَزِع، فَخَرَجْتُ أبْتَغِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَتَّى أتَيْتُ حَائِطًا للأنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أجِدُ لَهُ بَابًا، فَلَمْ أجِدْ، فَإِذَا رَبيعٌ يَدْخُلُ في جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بِئرٍ خَارِجَهُ ـ وَالرَّبِيعُ: الجَدْوَلُ الصَّغِيرُ ـ فَاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى رسُولِ الله ﷺ فقال: «أبُو هُرَيْرَةَ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَال: «مَا شَأْنُكَ؟»، قلتُ: كُنْتَ بَيْنَ أظهرِنَا فَقُمْتَ فَأبْطأتَ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزِعْنَا، فَكُنْتُ أوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فأتَيْتُ هذَا الحائِطَ، فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ، وَهؤلاءِ النَّاسُ وَرَائي. فَقَالَ: «يَا أبا هُرَيْرَةَ» وَأعْطَانِي نَعْلَيْهِ فَقَالَ: «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مَنْ وَرَاءِ هذَا الحائِطِ يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بالجَنَّةِ» وَذَكَرَ الحَدِيثَ بطُولِهِ، رواه مسلم[١].

«الرَّبِيعُ»: النَّهْرُ الصَّغِيرُ، وَهُوَ الجَدْوَلُ ـ بفتحِ الجيمِ ـ كَمَا فَسَّرَهُ في الحَدِيثِ. وقولُه: «احْتَفَزْتُ» رويَ بالرَّاءِ وبالزَّايِ، ومعناهُ بالزاي: تَضَامَمْتُ وتَصَاغَرْتُ حَتَّى أمْكَنَنِي الدُّخُولُ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم(٣١).

الشرح

هذا الحديث الذي نقله المؤلف في رياض الصالحين، باب التبشير والتهنئة بالخير فيه أيضًا البشارة، فإن النبي ﷺ كان جالسًا في أصحابه في نفر منهم، ومعه أبو بكر وعمر، فقام النبي ﷺ ثم أبطأ عليهم، فخشوا أن يكون أحد من الناس اقتطعه دونهم؛ لأن النبي ﷺ مطلوب من جهة المنافقين ومن جهة غيرهم من أعداء الدين.

فقاموا فزعين، فكان أول من فزع أبا هريرة رضي الله عنه، حتى أتى حائطًا لبني النجار، فجعل يطوف به لعله يجد بابًا فلم يجد، ولعله أراد بابًا مفتوحًا فلم يجد، وإلا فمن المعلوم أن الحيطان لابد أن يكون لها أبواب، ولكن لعله أن يكون وجد بابًا مغلقًا، فوجد ثعلبًا، والثعلب الفتحة تكون في الجدار يدخل معها السيل فاحتبى أبو هريرة فدخل حتى وجد النبي ﷺ.

فقال له: «أبو هريرة؟». قال: نعم. فأعطاه نعليه عليه الصلاة والسلام وقال له: «اذهب بنعليَّ هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا به قلبه فبشره بالجنة» نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم في الحياة وعند الممات.

فخرج أبو هريرة رضي الله عنه ومعه النعلان نعلا رسول الله

ﷺ، وكأن النبي ﷺ أعطاه النعلين أمارة وعلامة على أنه صادق؛ لأن هذه بشارة عظيمة؛ وهي أن من قال: أشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه دخل الجنة؛ لأن الذي يقول هذه الكلمة مستيقنًا بها قلبه لابد أن يقوم بأوامر الله ويجتنب نواهي الله؛ لأنه يقول لا معبود حق إلا الله، وإذا كان هذا معنى الكلمة العظيمة، فإنه لابد أن يعبد الله عزَّ وجلَّ.

أما من قالها بلسانه ولم يوقن بها قلبه والعياذ بالله، فإنها لا تنفعه، فهاهم المنافقون يشهدون أن لا إله إلا الله، لكنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، ويقومون ويصلون، لكنَّ الصلاة ثقيلة عليهم، وأثقلها صلاة العشاء والفجر، ويأتون للرسول عليه الصلاة والسلام يقولون نشهد إنك لرسول الله، ويؤكدون هذا.

ولكن الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ لم تستيقن قلوبهم بلا إله إلا الله ولا بأن محمدًا رسول الله، ولهذا لم تنفعهم، أما من استيقن بها قلبه فهذه البشرى.

ولكن لا يمكن لإنسان يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويترك الفرائض أبدًا، ولهذا لا يكون هذا الحديث دليلاً على أن تارك الصلاة لا يكفر. لا، ليس فيه دلالة، لأن تارك الصلاة

يكفر ولو قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ لأنه يقولها من غير يقين. كيف يقولها من يقين ويترك الصلاة ويحافظ على تركها والعياذ بالله؟ هذا لا يمكن.

ولكن قد يرد على القلب وساوس من الشيطان وساوس خطيرة في الله عزَّ وجلّ، وهذه الوساوس لا تضر المؤمن شيئًا، فإن النبي ﷺ قال: «**هذا صريح الإيمان**»[1]. ومعنى هذا صريح الإيمان، ليس معناها أن الوساوس صريح الإيمان، لكن الوساوس دليلٌ على خالص الإيمان؛ لأن الشيطان يأتي إلى القلب الخالص الصريح الخالي من الشك ويُوقع عليه الوساوس لعله يشك، أو لعله يفسد إيمانه.

فيأتي إلى القلب فإذا دافعه الإنسان، وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الله هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، الله الأحد، الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد وأعرض عن هذه الوساوس زالت عنه، والشيطان لا يمكن أن يأتي إلى قلب خراب ليفسده؛ لأن القلب الخراب خراب.

ويُذكر أن ابن مسعود أو ابن عباس رضي الله عنهما جاء إليه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم(١٣٢).

ناس يقولون: إن اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في الصلاة. فقال: وما يصنع الشيطان بقلب خراب؟

معنى هذا أن قلوبهم خربة، والقلوب الخربة لا يأتي الشيطان لأجل أن يخربها، إنما يأتي الشيطان للقلوب السليمة المخلصة من أجل أن يلقي عليها الوساوس والشكوك.

فدع هذه الوساوس والشكوك والتجئ إلى ربك وقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ويزول عنك ذلك بإذن الله.

ففي هذا الحديث بشارة بالخير، وهو أن من شهد أن لا إله إلا الله موقنًا بها قلبه فليبشر بالجنة، والله الموفق.

* * *

٤/٧١١ ـ وعن ابنِ شُمَاسَةَ رضي الله عنه قال: حَضَرْنَا عَمْرَو بنَ العاصِ رضيَ اللهُ عنه، وَهُوَ في سِيَاقةِ المَوْتِ فَبَكى طَوِيلاً، وَحَوَّلَ وَجَهَهُ إلى الجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ فَأقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: إنَّ أفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسُول الله، إنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى

أطْبَاقٍ ثَلاثٍ: لَقَدْ رَأيْتُنِي وَمَا أحَدٌ أشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ الله ﷺ مِنِّي، وَلاَ أحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أنْ أكُونَ قدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الحالِ لَكُنْتُ مِنْ أهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ الله الإسْلامَ في قَلْبِي أتَيتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فلأبَايعُكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ فَقَبَضْتُ يَدِي، فقالَ: «مالكَ يَا عَمرو؟»، قلت: أرَدْتُ أن أشْتَرِطَ، قالَ: «تشْتَرِطُ مَاذَا؟»، قُلْتُ: أنْ يُغْفَرَ لي، قَالَ: «أمَا عَلِمْتَ أنَّ الإسْلاَمَ يَهْدِمُ ما كَانَ قبلَهُ، وأَن الهِجرَةَ تهدِمُ ما كان قَبْلَهَا، وَأَنَّ الحَجَّ يَهدِمُ ما كَانَ قَبْلَهُ؟». وما كان أحَدٌ أحَبَّ إليَّ مِنْ رسول الله ﷺ، وَلاَ أجَلَّ في عَيْنِي مِنْهُ، ومَا كُنتُ أطِيقُ أن أملأ عَيني مِنه إجلالاً له؛ ولو سُئِلتُ أن أصِفَهُ ما أطَقتُ؛ لأنِّي لم أكن أملأ عَينِي مِنه، ولو مُتُّ على تِلكَ الحَال لَرَجَوتُ أن أكُونَ مِنْ أهلِ الجَنَّةِ، ثم ولِينَا أشيَاءَ ما أدرِي ما حَالِي فِيها؟ فإذَا أنا مُت فلا تَصحَبَنِّي نَائحَةٌ، ولا نارٌ، فإذا دَفَنتمُوني، فَشُنُّوا عليَّ التُّرابَ شَنًّا، ثم أقِيمُوا حَولَ قَبرِي قَدرَ ما تُنحَرُ جَزورٌ، ويُقْسَمُ لحْمُهَا، حَتَّى أسْتَأنِسَ بِكُمْ، وأنظُرَ ما أرَاجِعُ بِهِ رسُلَ ربي. رواه مسلم[1].

قوله: «شُنُّوا» رُوِيَ بِالشينِ المعجمةِ وبالمهملةِ، أي: صبُّوهُ قليلاً قَلِيلاً، والله سبحانه أعلم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام ما قبله وكذا الهجرة، رقم(١٢١).

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في سياق الأحاديث الواردة في التبشير والتهنئة بالخير في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، تلك القصة العظيمة أنه حضره بعض أصحابه وهو في سياق الموت، فبكى بكاءً شديدًا وحول وجهه نحو الجدار رضي الله عنه، وهو الآن في سياق الموت سيفارق الدنيا، فقال له ابنه: علام تبكي وقد بشرك النبي ﷺ بالجنة؟ فقال: يا بني إني كنت على أطباقٍ ثلاث، أطباق يعني أحوال، ومنه قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]، يعني حالاً بعد حال.

ثم ذكر هذه الأطباق الثلاث؛ أنه كان يُبغض النبي ﷺ بغضًا شديدًا، وأنه ليس على وجه الأرض أحدًا يبغضه كما يبغض النبي ﷺ، وأنه يود أنه لو تمكن منه فقتله، وهذا أشد ما يكون من الكفر، حتى ألقى الله الإسلام في قلبه، فجاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: ابسط يدك فلأبايعك على الإسلام، وكان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا، فمدّ يده ولكن عمرو بن العاص كفّ يده، كف يده لا استكبارًا، ولكن استثباتًا لما سيذكره، فقال له: «مالك»؟ قال: يا رسول الله، إني أشترط ـ يعني على الإسلام ـ قال: «ماذا تشترط؟» قال: أشترط أن يُغفر لي.

هذا أكبر همه رضي الله عنه، يشترط أن الله يغفر له، ظن أنه لن يغفر الله لما كان له من سابقة. فقال له النبي ﷺ: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**» ثلاثة أشياء.

أما الإسلام فإنه يهدم ما قبله بنص الكتاب العزيز، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والهجرة: إذا هاجر الإنسان من بلده التي كان يعيش فيها وهي بلد كفر، هدمت ما قبلها.

والحج يهدم ما قبله لقول النبي ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»[١].

فبايع رضي الله عنه وأحب النبي ﷺ حبًّا شديدًا حتى كان أحب الناس إليه، وحتى إنه لا يستطيع أن يحد النظر فيه إجلالاً للنبي عليه الصلاة والسلام. سبحان مقلب القلوب! بالأمس كان يبغضه بغضًا شديدًا، حتى يتمنى أن يقدر عليه فيقتله، وأما الآن ما يستطيع أن يرفع طرفه إليه إجلالاً له، ولا يستطيع أن يصفه لأنه لا يحيط به،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها، رقم(١٧٧٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، رقم(١٣٤٩).

حيث إنه لم يدركه إداركًا جيدًا مهابة له ﷺ.

يقول رضي الله عنه: إنه لو مات على الطبق الأول؛ لكان من أهل النار، يقول: ولو مت على تلك الحال الثانية، لرجوت أن أكون من أهل الجنة. انظر الاحتياط فقد جزم أنه لو مات على الحال الأولى لكان من أهل النار، أما الحال الثانية فإنه لشدة خوفه قال: لو مت على هذه الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ولم يقل: لكنت من أهل الجنة؛ لأن الشهادة بالجنة أمرها صعب، نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها.

ثم إنه بعد ذلك تولى أمورًا رضي الله عنه، تولى إمارات وقيادات، وحصل ما حصل في قصة حرب معاوية وغيره، وكان عمرو بن العاص معروفًا أنه من أدهى العرب وأذكى العرب، فيقول: أخشى من هذا الذي حدث بعد الطبق الأوسط أن يكون أحاط بعمله.

ثم أوصى رضي الله عنه أنه إذا مات فلا تتبعه نائحة. النائحة: هي المرأة التي تنوح على الميت وتبكي عليه بكاءً يشبه نوح الحمام، وأمر رضي الله عنه إذا دفنوه أن يبقوا عند قبره قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى يراجع رسل ربه وهم الملائكة الذين يأتون إلى الميت إذا دفن. إذا دفن الميت فإنه يأتيه ملكان ويجلسانه

في قبره ويسألانه عن ثلاثة أسئلة، يقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

أما المؤمن الذي ثبته الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ـ جعلنا الله وإياكم منهم بمنّه وكرمه ـ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، يثبته الله في المقام الضنك.

وأما المنافق والعياذ بالله أو المرتاب الذي عنده الشك فيقول: ها ها لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته؛ لأن الإيمان ما دخل إلى قلبه ولا وقر في قلبه، فهو يسمع ويقول، لكن ـ نسأل الله العافية ـ لم يلج الإيمان إلى قلبه، فيضرب بمرزبة، والمرزبة المطرقة العظيمة من حديد؛ يضرب بمزربة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان.

وقال النبي ﷺ: «ولو سمعها الإنسان لصعق»[(١)]، لو يسمع الناس من يعذب في قبره لصعقوا، ماتوا لأنه يصيح صيحة لا نظير لها في الدنيا؛ لأن الصياح في الدنيا مهما كان لا يموت أحد منه، لكن هذه صيحة عظيمة ليس لها نظير، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق.

فأمر عمرو بن العاص رضي الله عنه أهله أن يقيموا عليه قدر ما

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب كلام الميت على الجنازة، رقم(١٣٨٠).

تنحر الجزور ويقسم لحمها ليستأنس بهم، وهذا يدل على أن الميت يحس بأهله، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا من دفنه[١]. قرع النعال الخفي يسمعه الميت إذا انصرفوا من دفنه.

وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام في حديث حسن أنه كان إذا دفن الميت وقف عليه وقال: «**استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل**»[٢]، فيُستحب إذا دُفن الميت أن يقف الإنسان على قبره ويقول: اللهم ثبته، اللهم ثبته، اللهم ثبته، اللهم اغفر له، اللهم اغفر له، اللهم اغفر له! لأن النبي ﷺ كان إذا سلم سلم ثلاثًا، وإذا دعا دعا ثلاثًا[٣].

نسأل الله تعالى أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

الحاصل أن ابن عمرو بن العاص قال له: بشَّرك النبي ﷺ بالجنة، وهذا من باب البشارة بالخير والتهنئة به، والله الموفق.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم(١٣٧٤)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، رقم(٢٨٧٠).

(٢) رواه أبوداود، كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند قبر الميت في وقت الانصراف، رقم(٣٢٢١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ...، رقم(١٧٩٤).

٩٦ـ باب وداع الصّاحب ووصيّته عند فراقه لسفر وغيره والدعاء له وطلب الدعاء منه

قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

وأما الأحاديث:

١/٧١٢ ـ فمنها حَديثُ زيدٍ بن أرْقَمَ ـ رضي الله عنه ـ الذي سبق في باب إكرامِ أهْلِ بَيْتِ رسول الله ﷺ ـ قال: قامَ رسول الله ﷺ فِينَا خَطِيبًا، فَحَمِدَ الله، وَأثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: «أمَّا بَعْدُ، ألا أيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا أنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أنْ يَأتِيَ رَسُولُ رَبِّي فأجِيبَ، وأنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أوَّلُهمَا: كِتَابُ الله، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكَتَابِ الله، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَاب الله، وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قالَ: «وَأهْلُ بَيْتِي، أذَكِّرُكُمُ الله في أهْلِ بَيْتِي» رواه مسلم[1]. وقَدْ سَبَقَ بِطُولِه.

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب...، رقم(٢٤٠٨).

الشرح

قال النووي رحمه الله تعالى في كتاب رياض الصالحين، باب وداع الصاحب ووصيته عند فراقه لسفر وغيره والدعاء له وطلب الدعاء منه.

وذلك أن الإنسان إذا سافر فإنه ينبغي لأقاربه وذويه وأصحابه أن يودعوه، وأن يوصوه بتقوى الله عزَّ وجلَّ، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

وكان النبي ﷺ إذا بعث جيشًا أو سرية وأمر عليهم أميرًا قال له: «**أوصيك بتقوى الله ومن معك من المسلمين خيرًا**»[(١)]، وذلك أن الإنسان يحتاج إلى أحد يساعده ويعينه على طاعة ربه ولا سيما عند السفر؛ لأن السفر محل الشغل والتقصير ولا سيما فيما سبق من الزمان، لما كانت الأسفار بعيدة على المطايا وعلى الأقدام، فالناس يحتاجون إلى وصية وإلى تثبيت وإلى إعانة.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى الآيات الواردة في ذلك فقال: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وهذه الوصية هي قول الله عزَّ وجلَّ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث...، رقم(١٧٣١).

في إبراهيم: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]، ولم يتردد فأسلم لله وانقاد له.

ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، يعني وصى بهذه الوصية، وهي أن يسلموا لله عزَّ وجلَّ ظاهرًا وباطنًا، فالإسلام الظاهر يكون بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، والإسلام الباطن يكون بالإيمان بالله وملائكته وكتبه إلى آخره.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ يعني أن إبراهيم ويعقوب كل منهما وصى بها بنيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أي اختاره لكم ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ المعنى استدينوا الإسلام واثبتوا عليه إلى الممات ولا ترتدوا عنه.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ وهذا غاية التوحيد، وهذا من نصح يعقوب عليه الصلاة والسلام لبنيه حيث أراد أن يعرف حالهم قبل أن يفارق الدنيا، ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

أما إبراهيم فهو أبوه يعني جده، وإسحاق أبوه من صلبه، وأما إسماعيل فهو عمه لكن أطلق عليه لفظ الآباء من باب التغليب؛ لأن

العم صنو الأب، كما قال النبي ﷺ لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه»[١] يعني شريكه في الأصل والجذر. والصنو هو عبارة عن النخلتين يكون أصلهما واحدًا وهما قرينتان، ويسمى عند العامة القرائن.

وقوله: ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ من باب التوكيد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

فهذه الوصية ينبغي للإنسان أن يوصي بها من أراد سفرًا، وأن يوصي بها أهله، وأن يتعاهدهم عليها؛ لأنها هي التي عليها بناء كل شيء، فلا دين بدون إخلاص، ولا عبادة بدون إخلاص، ولا اتباع بدون إخلاص، كل شيء مبناه على الإخلاص لله عزَّ وجلَّ.

اللهم إنا نسألك أن تجعلنا ممن يعبدك مخلصين لك الدين يا رب العالمين.

* * *

٢/٧١٣ ـ وعن أبي سُلَيْمَانَ مَالك بْنِ الحُوَيْرِثِ رضي الله عنه قال: أَتَيْنَا رسول الله ﷺ ونَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عشْرِينَ لَيلَةً، وكانَ رسولُ الله ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَظَنَّ أنَّا قَدِ اشْتَقْنَا أهْلَنَا، فَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا مِنْ أهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، فقال: «ارْجِعُوا إِلَى أهْلِيكم، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُم وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا صَلاةَ كَذَا في حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا كَذَا في حينِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم(٩٨٣).

كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أكبَرُكُم» متفقٌ عليه[١].

زاد البخاري في رواية له: «وَصَلُّوا كمَا رَأيتُمُوني أصَلِّي».

قوله: «رَحِيمًا رَفيقًا» روِيَ بفاءٍ وقافٍ، ورويَ بقافين.

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين، باب توديع الصاحب والمسافر والمفارق في أي فراق كان ووصيته من خلفه. قال في ذكر الأحاديث الواردة في هذا ما نقله عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، وهذا في عام الوفود في السنة التاسعة من الهجرة، وكانوا شبابًا، فأقاموا عند النبي ﷺ عشرين ليلة.

جاءوا من أجل أن يتفقهوا في دين الله، فلما رأى أنا قد اشتقنا أهلنا، يعني اشتقنا إليهم، سألهم وأخبروه عمّا وراءهم فقال: **«ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم، وصلوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم»** زاد البخاري: **«وصلُّوا كما رأيتموني أصلي»**.

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة...، رقم(٦٣١)، ومسلم، كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة، رقم(٦٧٤).

فهذا الحديث فيه فوائد:

منها: أن النبي ﷺ كان مشهورًا بالرحمة والرفق، فكان أرحم الناس بالناس، وكان أرفق الناس بالناس عليه الصلاة والسلام. رحيمًا رفيقًا، حتى إن الجارية من أهل المدينة ـ البنت الصغيرة ـ تمسك بيده ليذهب معها ليقضي حاجتها، وحتى العجوز كذلك، فكان عليه الصلاة والسلام أرحم الناس بالناس، وأرفق الناس بالناس.

ومنها: أن الإنسان ينبغي له أن يكون شعوره شعور الآخرين، لا يكون أنانيًا إذا تمت له الأمور نسي من سواه، فإن رسول الله ﷺ كان مقيمًا في أهله مستريح البال مطمئن القلب مرتاح النفس، لكن هؤلاء الشببة الذين جاءوا يتعلمون الدين، كانت الفطرة والعادة والطبيعة أن الإنسان يشتاق إلى أهله، فلما رأى أنهم اشتاقوا إلى أهلهم وسألهم من خلفوا وراءهم وأخبروه، أمرهم أن يرجعوا إلى أهليهم.

فأنت ينبغي لك أن تشعر بشعور الآخرين وأن تفرض نفسك كأنك إياهم حتى تعاملهم بما تحب أن تعامل به نفسك.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يقيم في أهله ما أمكنه، ولا ينبغي أن يتغرب عنهم ولا أن يبتعد عنهم، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر المسافر إذا سافر وقضى حاجته أن يرجع إلى أهله؛ لأن

بقاء الإنسان في أهله فيه خير كثير، فيه الألفة والمودة والمحبة، والتربية ومراعاة أحوالهم، والتأديب والتوجيه، فلهذا كان الذي ينبغي للإنسان أن لا يفارق أهله إلا عند الحاجة، ومتى انتهت حاجته رجع إليهم.

ومن فوائد الحديث: أن الإنسان مأمور بأن يعلم أهله ولهذا قال: «ارجعوا إلى أهليكم وعلموهم»، يعلمونهم ما تعلموه من رسول الله ﷺ، فالإنسان ينبغي له أن يعلم أهله ما يحتاجون إليه، إما أن يجعل جلسة خاصة لهم، أو إذا جلسوا على الطعام أو على الشراب أو في انتظار النوم أو ما أشبه ذلك يعلمهم.

ومن فوائد الحديث: أن الإنسان لا يقتصر على التعليم فقط، قال: «علموهم ومروهم» فيعلمهم ويأمرهم، وأهم ما يأمر به: الصلاة، وقد نص الرسول عليه الصلاة والسلام عليها فقال: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر»(١)، فلابد من تعليم الأهل، ولابد من أمرهم وتأديبهم وتوجيههم.

ومن فوائد الحديث: وجوب الأذان وأنه فرض كفاية؛ لقوله: «إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم».

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم(٤٩٥)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء متى يؤمر الصبي بالصلاة، رقم(٤٠٧).

ومنها: أنه لا يصح الأذان قبل الوقت، فلو أذن الإنسان قبل الوقت ولو بتكبيرة واحدة من الأذان، فإن أذانه لا يصح، ويجب عليه أن يعيده بعد دخول الصلاة، لقوله: «إذا حضرت الصلاة» والصلاة لا تحضر إلا إذا دخل وقتها.

وبهذا نعرف أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام لبلال: «إذا أذنت بالأوّل من الصبح فقل الصلاة خير من النوم؛ الصلاة خير من النوم»[1] المراد به الأذان الذي يكون بعد دخول الوقت؛ لأنه قال الأول لصلاة الصبح.

خلافًا لما فهمه بعض الناس من أن المراد بذلك الأذان الذي يكون قبل الفجر؛ لأن الأذان الذي يكون قبل الفجر أذان لقرب طلوعه، فقد بيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن الأذان الذي يكون قبل الفجر هو لإيقاظ النائم وإرجاع القائم. فقال: «إن بلالاً يؤذن ليوقظ نائمكم ويرجع قائمكم، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر»[2].

هكذا قال النبي ﷺ فبين في هذا الحديث أن الأذان الذي يكون

---

(١) رواه أحمد في المسند(٣/٤٠٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لا يمنعكم... رقم(١٩١٩)، ومسلم، كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، رقم(١٠٩٣).

في آخر الليل، والذي يسميه الناس الأذان الأول هذا ليس للفجر وليس للصلاة؛ لأن الأذان للصلاة لا يكون إلا بعد دخول وقتها: «إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم»، وقد بيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن هذا الأذان ليس لصلاة الفجر بقوله: «ليرجع قائمكم» يعني يرده ليتسحر «ويوقظ نائمكم» ليتسحر.

ومن فوائد هذا الحديث: وجوب صلاة الجماعة لقوله: «وليؤمكم أكبركم» واللام هنا للأمر فصلاة الجماعة واجبة.

ومن فوائد الحديث: أن صلاة الجماعة واجبة على المسافرين كما هي واجبة على المقيمين؛ لأن هؤلاء وفد سيرجعون إلى أهلهم، فهم مسافرون، وأمرهم بالصلاة جماعة، وعلى هذا فإذا كان الإنسان في البلد وهو مسافر، فإنه يجب عليه أن يحضر الجماعة في المساجد.

وبعض العامة إذا قلت له: صلِّ مع الجماعة، قال: أنا مسافر، والمسافر ليس عليه صلاة جماعة. بل يجب أن تصلي مع الجماعة في المساجد ولو كنت مسافرًا، فأنت وأهل البلد سواء، قال النبي عليه الصلاة والسلام لرجل: «أتسمع النداء؟» قال: نعم. قال: «فأجب»[1].

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، رقم(٦٥٣).

ومن فوائد هذا الحديث: تقديم الكبير في الإمامة لقوله ﷺ: «وليؤمكم أكبركم» وهذا لا ينافي قوله عليه الصلاة والسلام: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»[١]؛ لأن هؤلاء الشباب كلهم وفدوا في وقت واحد، والظاهر أنه ليس بينهم فرق بيّن في قراءة القرآن، وأنهم متقاربون، ليس بعضهم أقرأ من بعض ولهذا قال: «وليؤمكم أكبركم» لأنهم متساوون في القراءة أو متقاربون، فإذا تساووا في القراءة والسنة والهجرة، فإنه يرجع إلى الأكبر سنًّا ويقدمونه.

من فوائد الحديث: اعتبار الكبر في السن وأن الكبير في السن مقدم على غيره إذا لم يكن لغيره ميزة يَفْضُل بها هذا الكبير في السن.

ومن فوائد الحديث: أنه ينبغي للإنسان الموجِّه للناس أن يوجههم لكل أمر وإن كان يظن أنه معلوم، ولهذا قال: «صلوا صلاة كذا في حين كذا» مع أنهم قد صلوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام وصلوا معه عشرين ليلة، وهم يعلمون ذلك، لكن من أجل التنبيه. قال: صلوا الظهر ـ مثلاً ـ في وقت كذا، صلوا العصر في وقت كذا، صلوا المغرب في وقت كذا، صلوا العشاء في وقت كذا، صلوا الفجر في وقت كذا.

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة، رقم(٦٧٣).

ومن فوائد هذا الحديث: أن النبي ﷺ كان يعلم الناس بالقول وبالفعل، فعلَّم الذي صلَّى بغير طمأنينة بالقول، قال: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع»[1] إلى آخره.

أما هؤلاء فقال لهم: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وهذا تعليم بالفعل، وكما فعل عليه الصلاة والسلام حينما صنع له المنبر، فصعد عليه وجعل يصلي بالناس وهو على المنبر، فيركع وهو على المنبر، فإذا أراد السجود نزل من المنبر وهو مستقبل القبلة ثم سجد، وقال لما سلم: «إنما فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي»[2].

ومن فوائد هذا الحديث: أنه ينبغي للإنسان؛ بل يجب على الإنسان أن يعرف كيف كان النبي ﷺ يصلي، فيقرأ من كتب العلم التي كتبها من يوثق بعلمه، كيف كان الرسول ﷺ يصلي، حتى ينفذ أمر الرسول في قوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، والله الموفق.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنثت ناسيًا في الأيمان، رقم(٦٦٦٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم(٣٩٧) [٤٦].

(٢) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، رقم(٩١٧)، ومسلم، كتاب المساجد، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة، رقم(٥٤٤).

٧١٤/٣ ـ وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه قال: اسْتَأذَنْتُ النبيَّ ﷺ في العُمْرَةِ، فَأذِنَ، وقال: «لا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ» فقالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّني أنَّ لي بِهَا الدُّنْيَا.

وفي رواية قال: «أشْرِكْنَا يَا أُخَيَّ في دُعَائِكَ» رواه أبوداود، والترمذي[1]. وقال: حديث حسنٌ صحيحٌ.

٧١٥/٤ ـ وعن سالم بن عَبْدِ اللهِ بن عُمَرَ أنَّ عبدَ اللهِ بن عُمَرَ رضي الله عنهما كَانَ يَقُولُ للرَّجُلِ إذَا أرَادَ سَفَرًا: ادْنُ مِنِّي حَتَّى أودِّعَكَ كَمَا كَانَ رسولُ الله ﷺ يوَدِّعْنَا. فيَقُولُ: «أسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ، وَأَمَانَتَكَ، وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ» رواه الترمذي[2]. وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

٧١٦/٥ ـ وعن عبدِ الله بن يزِيدَ الخَطْميِّ الصَّحَابيِّ رضي الله عنه قالَ: كَانَ رسولُ الله ﷺ إذَا أرَادَ أنْ يُودِّعَ الجَيْشَ قالَ: «أسْتَودِعُ اللهَ دِينَكُمْ، وأَمَانَتكُمْ، وَخوَاتِيمَ أعمَالِكُمْ».

حديث صحيحٌ، رواه أبوداود[3] وغيره بإسنادٍ صحيحٍ.

٧١٧/٦ ـ وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إلَى النبيِّ ﷺ فقال: يا رَسُولَ الله، إنِّي أرِيدُ سَفَرًا، فَزَوِّدْنِي، فَقَالَ: «زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى»

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم(١٤٩٨)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم(٣٥٦٢)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا ودع إنسانًا، رقم(٣٤٤٣).

(٣) رواه أبوداود، كتاب الجهاد، باب في الدعاء عند الوداع، رقم(٢٦٠١).

قال: زِدْنِي، قال: «وَغَفَرَ ذَنْبَكَ»، قال: زِدْنِي، قال: «وَيَسَّرَ لَكَ الخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ» رواه الترمذي[١] وقال: حديثٌ حسنٌ.

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي رحمه الله في كتاب رياض الصالحين فيما يستحب من وداع الصاحب والدعاء له وطلب الدعاء منه، فذكر حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أراد أن يعتمر، فاستأذن النبي ﷺ فأذن له. وقال: «**لا تنسنا يا أُخَيَّ من دعائك**» وفي رواية: «**أشركنا يا أُخَيَّ في دعائك**»، وذكر أن الترمذي أخرجه وقال إنه حسنٌ صحيحٌ ولكن الحقيقة أنه ضعيف وأنه لا يصح عن النبي ﷺ.

وطلب الدعاء من الغير ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يطلب من الغير الدعاء لصالح المسلمين. أي لشيء عام، فهذا لا بأس به، وقد دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يُغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: «**اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا**» فأنشا الله سحابة فانتشرت وتوسعت وأمطرت، ولم ينزل النبي ﷺ من المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته، وبقي

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا ودّع إنسانًا، رقم(٣٤٤٤).

المطر أسبوعًا كاملاً.

وفي الجمعة الثانية دخل رجل آخر أو الأول فقال: يا رسول الله، غرق المال، وتهدم البناء، فادع الله يمسكها عنا، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: «**اللهم حوالينا ولا علينا**» وجعل يشير إلى النواحي حوالينا ولا علينا، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت وتمايز السحاب، حتى خرج الناس يمشون في الشمس[١].

فإذا طلبت من شخص صالح مرجو الإجابة شيئًا عامًّا للمسلمين فهذا لا بأس به، لأنك لم تسأل لنفسك.

القسم الثاني: أن يطلب الدعاء من الرجل الصالح من أجل أن ينتفع الرجل الداعي بهذا الدعاء. ولا يهمه هو أن ينتفع، لكن يجب على هذا الرجل الذي طُلبَ منه الدعاء أن يلجأ إلى الله، وأن يسأل الله عزَّ وجلَّ، وأن يعلق قلبه بالله، وأن يعلم أن الله سبحانه وتعالى سميع الدعاء، المهم أن يكون القصد من طلب الدعاء مصلحة هذا الرجل، فهذا لا بأس به أيضًا؛ لأنك لم تسأله لمحض نفعك، ولكن لنفعه أيضًا، فهذا الرجل الصالح تريد أن يزداد خيرًا بدعاء الله عزَّ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب من تمطر في المطر حتى يتحادر على لحيته، رقم(١٠٣٣)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم(٨٩٧).

وجلَّ، والتقرب إليه بالأجر والثواب.

القسم الثالث: أن يطلب الدعاء من الغير لمصلحة نفسه هو، فهذا قد أجازه بعض العلماء وقال: لا بأس أن تطلب من الرجل الصالح أن يدعو لك.

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: لا ينبغي إذا كان قصدك مصلحة نفسك فقط؛ لأن هذا قد يدخل في المسألة المذمومة؛ لأن النبي ﷺ بايع أصحابه ألا يسألوا الناس شيئًا[١]؛ لأنه ربما يعتمد هذا السائل الذي سأل من غيره أن يدعو له؛ على دعاء هذا الغير، وينسى أن يدعو هو لنفسه، فيقول: أنا قلت لفلان وهو رجل صالح ادعُ الله لي، وإذا استجاب الله هذا الدعاء فهو كافٍ فيعتمد على غيره، ولأنه ربما يلحق المسؤول غرور في نفسه، وأنه رجلٌ صالحٌ تطمح الناس إلى دعائه، فيحصل في هذا ضرر على المسؤول.

وعلى كل حال فإن هذا القسم الثالث مختلف فيه، فمن العلماء من قال: لا بأس أن تقول للرجل الصالح: يا فلان، ادع الله لي، ومنهم من قال لا ينبغي، والأحسن ألا تقول ذلك؛ لأنه ربما يمنّ عليك بهذا، وربما تذل أمامه بسؤالك، ثم إنك من الذي يحول بينك

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم(١٠٤٣).

وبين ربك؟ أنت يا أخي ادع الله بنفسك لنفسك أنت، لا أحد يحول بينك وبين الله عز وجل.

لماذا تذهب تفتقر إلى غيرك وتقول: ادع الله لي وأنت ليس بينك وبين ربك واسطة؟ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، والله الموفق.

* * *

٩٧- بابُ الاستِخارة والمشاورة

قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، أي يَتَشَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ فِيهِ.

١/٧١٨ - عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ في الأمُورِ كُلِّهَا كالسُّورَةِ مِنَ القُرآنِ، يَقُولُ: «إذا هَمَّ أحَدُكُمْ بالأمرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثم ليقُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي أسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأسألُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ؛ فَإنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أعْلَمُ، وَأنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هذَا الأمرَ خَيرٌ لي في دِينِي وَمَعَاشي وَعَاقِبَةِ أمْرِي» أوْ قالَ: «عَاجِلِ أمْرِي وآجِله، فاقْدُرْهُ لي وَيَسِّرْهُ لي، ثمَّ بَارِكْ لي فِيهِ، وَإن كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هذَا الأمْرَ شرٌّ لي في دِينِي ومَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أمري» أو قال: «عَاجِلِ أمْرِي وآجِله، فاصْرِفهُ عَنِّي، واصْرِفْني عَنْهُ، واقْدُرْ لي الخَيْرَ حَيْثُ كانَ، ثمَّ ارْضِنِي بِهِ» قال: ويسمِّي حاجته. رواه البخاري[1].

الشرح

قال النووي رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين، باب

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم(٦٣٨٢).

الاستخارة والمشاورة.

الاستخارة مع الله، والمشاورة مع أهل الرأي والصلاح، وذلك أن الإنسان لابد له من قصور أو تقصير، والإنسان خلق ضعيفًا، فقد تشكل عليه الأمور، وقد يتردد فيها، فماذا يصنع؟ لنفرض أنه همّ بسفر وتردد هل هو خير أم شر، أو همّ أن يشتري سيارة أو بيتًا، أو أن يصاهر رجلاً يتزوج ابنته أو ما أشبه ذلك، ولكنه متردد. فماذا يصنع؟ نقول: له طريقان:

الطريق الأول: استخارة ربّ العالمين عزَّ وجلَّ الذي يعلم ما كان وما يكون كيف كان يكون.

الطريق الثاني: ثم استشاره أهل الرأي والصلاح والأمانة، واستدل المؤلف رحمه الله على المشاورة بآيتين من كتاب الله هما قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ وهذا خطاب للنبي ﷺ.

وقال الله له: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكان النبي ﷺ وهو أسدُّ الناس رأيًا وأصوبهم صوابًا، يستشير أصحابه في بعض الأمور التي تشكل عليه، وكذلك خلفاؤه من بعده كانوا يستشيرون أهل الرأي والصلاح.

ولابد من هذين الشرطين فيمن تستشيره؛ أن يكون ذا رأي

وخبرة في الأمور وتأنٍّ وتجربة وعدم تسرع، وأن يكون صالحًا في دينه؛ لأن من ليس بصالح في دينه ليس بأمين، حتى وإن كان ذكيًّا ومحنكًا في الأمور فلا خير فيه، وليس أهلاً لأن يكون من أهل المشورة؛ لأنه إذا كان غير صالح في دينه فإنه ربما يخون والعياذ بالله، ويُشير بما فيه الضرر، أو يشير بما لا خير فيه، فيحصل بذلك من الشر والفساد ما الله به عليم.

ولنفرض أنه رجلٌ من أهل الفسق والمجون والفجور فلا يجوز أن تستشيره؛ لأن هذا يوقعك في حفرة هلاك.

كذلك لو كان رجلاً صالحًا دينًا أمينًا لكنه مغفل، لا يعرف الأمور، أو متسرع لا خبرة له، فهذا أيضًا لا تحرص على استشارته، لأنه ربما إذا كان مغفلاً لا يدري عن الأمور؛ يأخذ الأمور بظواهرها، ولا يعرف شيئًا مما وراء الظواهر، وكذلك إن كان متسرعًا فإنه ربما يحمله التسرع على أن يشير عليك بما لا خير فيه، فلابد من أن يكون ذا خبرة وذا رأي وصلاح في الدين.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، يعني أمرهم المشترك الذي هو للجميع، كالجهاد مثلاً فإنه شورى بينهم. فإذا أراد ـ مثلاً ـ ولي الأمر أن يجاهد أو أن يفعل شيئًا عامًّا للمسلمين، فإنه يشاورهم.

ولكن كيف تكون المشورة؟

المشورة تكون إذا حدث له أمر يُتردد فيه، جمع من يرى أنهم أهل للمشورة برأيهم وصلاحهم واستشارتهم.

أما الاستخارة فهي مع الله عزَّ وجلَّ، يستخير الإنسان ربه إذا هم بأمر ولا هو يدري عاقبته ولا يدري مستقبله، فعليه بالاستخارة، استخارة رب العالمين.

والاستخارة معناها طلب خير الأمرين.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى ذلك، بأن يصلي الإنسان ركعتين من غير الفريضة في غير وقت النهي، إلا في أمر يخشى فواته قبل خروج وقت النهي، فلا بأس أن يستخير ولو في وقت النهي.

أما ما كان فيه الأمر واسعًا فلا يجوز أن يستخير وقت النهي، يعني بعد العصر لا يستخير، وبعد الفجر حتى ترتفع الشمس مقدار رمح لا يستخير، وعند زوالها حتى تزول لا يستخير، إلا في أمر قد يفوت عليه، يصلي ركعتين من غير الفريضة، ثم يسلِّم، وإذا سلَّم قال: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كان هذا الأمر** ـ ويسميه ـ مثلاً: لنفرض أنه يريد أن يصاهر أناسًا يتزوج بنتهم، **اللهم إن كنت تعلم أن** زواجي

بهذه البنت خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: «عاجل أمري وآجله»، يعني إما أن تقول هذا أو هذا ـ فاقدره لي ويسره لي. وإن كنت تعلم أنه شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به» وينتهي.

ثم بعد ذلك إن انشرح صدره بأحد الأمرين بالإقدام أو الإحجام، فهذا المطلوب، يأخذ بما ينشرح به صدره، فإن لم ينشرح صدره لشيء وبقي مترددًا أعاد الاستخارة مرة ثانية وثالثة.

ثم بعد ذلك المشورة إذا لم يتبين له شيء بعد الاستخارة، فإنه يشاور أهل الرأي والصلاح، ثم ما أشير عليه به فهو الخير إن شاء الله؛ لأن الله تعالى قد لا يجعل في قلبه بالاستخارة ميلاً إلى شيء معين حتى يستشير، فيجعل الله تعالى ميل قلبه بعد المشورة.

وقد اختلف العلماء هل المقدم المشورة أو الاستخارة؟

والصحيح أن المقدم الاستخارة، فقدم أولاً الاستخارة؛ لقول النبي ﷺ: «إذا هم أحدكم بالأمر فيصل ركعتين... إلى آخره» فقدِّم أولاً الاستخارة، ثم إذا كررتها ثلاث مرات ولم يتبين لك الأمر، فاستشر؛ ثم ما أشير عليك به فقد يكون هذا الذي جعله الله لك فخذ به، وإنما قلنا: إنه يستخير ثلاث مرات؛ لأن من عادة النبي ﷺ أنه

إذا دعا دعا ثلاثًا[١]، والاستخارة دعاء، وقد لا يتبين للإنسان خير الأمرين من أول مرة، قد يتبين في أول مرة، أو في الثانية، أو في الثالثة، وإذا لم يتبين فليستشر، والله الموفق.

* * *

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من...، رقم(١٧٩٤).

٩٨ ـ باب استحباب الذّهاب إلى العيد وعَيادة المريض والحج والغزو والجنازة ونحوها من طريق والرجوع من طريق آخر لتكثير مواضع العبادة

١/٧١٩ ـ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنه قال: كانَ النبيُّ ﷺ إذا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خالفَ الطَّرِيقَ. رواه البخاري[(١)].

قوله: «خَالفَ الطَّريقَ» يعني: ذَهَبَ في طَرِيقٍ، وَرَجَعَ في طريقٍ آخَرَ.

٢/٧٢٠ ـ وعن ابن عُمَرَ رضيَ الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ كانَ يَخْرُجُ مِنْ طَرِيقِ الشَّجَرَةِ، وَيَدخُلُ مِنْ طَرِيقِ المُعَرَّسِ، وَإِذَا دَخَلَ مَكَّةَ دَخَلَ مِنَ الثَّنِيَّةِ العُلْيَا وَيَخْرُجُ مِنَ الثَّنِيَّةِ السُّفْلى. متفقٌ عليه[(٢)].

الشرح

ثم ذكر النووي رحمه الله في كتاب رياض الصالحين، باب استحباب الذهاب إلى العيد وعيادة المريض والحج والغزو والجنازة ونحوها من طريق والرجوع من طريق آخر لتكثير مواضع

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب من خالف الطريق إذا رجع يوم العيد، رقم(٩٨٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحج، باب خروج النبي ﷺ على طريق...، رقم(١٥٣٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب استحباب دخول مكة من الثنية العليا والخروج...، رقم(١٢٥٧).

العبادة.

ومعنى الرجوع من طريق آخر: أن يذهب إلى العبادة من طريق ويرجع من الطريق الآخر؛ فمثلاً يذهب من الجانب الأيمن ويرجع من الجانب الأيسر، وهذا ثابتٌ عن النبي ﷺ في العيدين، كما رواه جابر رضي الله عنه كان النبي ﷺ إذا صلّى خالف الطرق؛ يعني خرج من طريق ورجع من طريق آخر.

واختلف العلماء لِمَ كان الرسول الله ﷺ يصنع ذلك؟

فقيل: ليشهد له الطريقان يوم القيامة؛ لأن الأرض يوم القيامة تشهد على ما عُمل فيها من خير وشر؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥]، تقول الأرض يوم القيامة: عمل عليّ فلان كذا، وعمل كذا، وعمل كذا. فإذا ذهب من طريق ورجع من آخر؛ شهد له الطريقان يوم القيامة بأنه أدّى صلاة العيد.

وقيل: من أجل إظهار الشعيرة؛ شعيرة العيد، حتى تكتظ الأسواق هنا وهناك. ومعلوم أن الناس لا يخرجون كلهم من طريق واحد ويرجعون من طريق واحد، تجد هذا يخرج من هذا الطريق، وهذا من هذا، وهذا من هذا، فإذا انتشر في طرق المدينة صار هناك إظهار لهذه الشعيرة؛ لأن صلاة العيد من شعائر الدين، والدليل

على ذلك أن الناس يؤمرون بالخروج إلى الصحراء إظهارًا لذلك، وإعلانًا لذلك.

وبعضهم قال: إنما خالف الطريق من أجل المساكين الذين يكونون في الأسواق، قد يكون في هذا الطريق ما ليس في هذا الطريق، فيتصدق على هؤلاء وهؤلاء.

ولكن الأقرب والله أعلم، أنه من أجل إظهار الشعيرة حتى تظهر شعيرة صلاة العيد وبالخروج إليها في جميع سكك البلد.

ثم اختلف العلماء رحمهم الله هل يلحق في ذلك صلاة الجمعة؟ لأن صلاة الجمعة صلاة عيد.

قالوا: تلحق بصلاة العيدين، فيأتي إلى الجمعة من طريق ويرجع من طريق آخر.

ثم توسع بعض العلماء وقالوا: يُشرع ذلك أيضًا في الصلوات الخمس، فيأتي مثلاً إلى صلاة الظهر من طريق ويرجع من طريق آخر، وهكذا في صلاة العصر وبقية الصلوات، قالوا: لأن ذلك كله حضور إلى الصلاة، فيُقاس على صلاة العيد.

وتوسع آخرون فقالوا: تُشرع مخالفة الطريق في كل شيء من التعبد، كل عبادة تذهب إليها فاذهب إليها من طريق وارجع إليها من طريق آخر، حتى عيادة المريض، إذا عدت مريضًا فاذهب إليه من

طريق وارجع من طريق آخر، وكذلك إذا شيعت جنازة، فاذهب من طريق وارجع من طريق آخر.

وكل هذه الأقيسة الثلاثة ضعيفة؛ لا قياس لصلاة الجمعة على العيدين، ولا بقية الصلوات على العيدين، ولا المشي في العبادة على العيدين، وذلك لأن العبادات ليس فيها قياس، ولأن هذه الأشياء كانت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، كان في عهده الجمعة، والصلوات الخمس، وعيادة المريض، وتشييع الجنائز، ولم يحفظ عنه أنه كان ﷺ يخالف الطريق في هذا.

والشيء إذا وجد في عهد الرسول ﷺ ولم يسن فيه شيئًا، فالسنة ترك ذلك.

أما في الحج، فإن النبي ﷺ خالف الطريق في دخوله إلى مكة؛ دخل من أعلاها، وخرج من أسفلها، وكذلك في ذهابه إلى عرفة، ذهب من طريق ورجع من طريق آخر.

واختلف العلماء أيضًا في هذه المسألة، هل كان النبي ﷺ فعل ذلك على سبيل التعبد، أو لأنه أسهل لدخوله وخروجه؟ لأنه كان الأسهل لدخوله أن يدخل من الأعلى ولخروجه أن يخرج من الأسفل.

فمَنْ قال من العلماء بالأول قال: إنه سنة أن تدخل من أعلاها

أي أعلى مكة وتخرج من أسفلها، وسنة أن تأتي عرفة من طريق وترجع من طريق آخر.

ومنهم من قال: بل هذا حسب تيسر الطريق، فاسلك المتيسر سواء من الأعلى أو من الأسفل.

وعلى كل حال إن تيسر لك أن تدخل من أعلاها وتخرج من أسفلها فهذا طيب، فإن كان ذلك عبادة فقد أدركته، وإن لم يكن عبادة فلم يكن ضرر عليك فيه، وإن لم يتيسر كما هو الواقع في وقتنا الحاضر، حيث إن الطرق قد وجهت توجيهًا واحدًا، ولا يمكن للإنسان أن يخالف، فالأمر والحمد لله واسع، والله الموفق.

* * *

٩٩ـ باب استحباب تقديم اليَمين في كل ما هو من باب التكريم

كالوضوء والغسل والتَّيَمُّم، ولُبْس الثوب والنعل والخفّ والسراويل ودخول المسجد، والسِّوَاكِ، والاكتحال، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، ونتف الإبط، وحلق الرأس، والسلام من الصلاة، والأكل والشرب، والمصافحة، واستلام الحجر الأسود، والخروج من الخلاء، والأخذ والعطاء، وغير ذلك مما هو في معناه. ويُستحب تقديم اليسار في ضد ذلك؛ كالامتخاط والبصاق عن اليسار، ودخول الخلاء، والخروج من المسجد، وخلع الخف والنعل والسراويل والثوب، والاستنجاء وفعل المستقذرات، وأشباه ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب استحباب البداءة اليمين في كل ما من شأنه التكريم. والعكس بالعكس، فما يُقصد به الإهانة فإنه يبدأ باليد اليسرى.

وقد ذكر المؤلف رحمه الله تعالى لهذا أشياء متعددة مثل

الوضوء والغسل والتيمم ولبس الثوب.

فالوضوء يبتدى فيه الإنسان باليمين، يبتدئ باليمنى قبل اليسرى، باليد اليمنى قبل اليد اليسرى، والرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى، هذا إذا كانا عضوين متميزين.

أما إذا كان عضوًا واحدًا كالوجه مثلاً، فإننا لا نقول ابدأ بيمين الوجه قبل يساره، بل يغسل الوجه مرة واحدة كما جاءت به السنة.

نعم لو فرض أن الإنسان لا يستطيع أن يغسل وجهه إلا بيد واحدة فهنا يبدأ باليمين، ربما يُقال: يُبدأ باليمين، وربما يُقال: يُبدأ من الأعلى، وكذلك مسح الأذنين لا تمسح الأذن اليمنى قبل اليسرى، بل يمسحان جميعًا، إلا إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يمسح بيديه جميعًا فيبدأ باليد اليمنى قبل اليسرى.

وكذلك في الغسل إذا أراد الإنسان أن يغتسل من الجنابة، فإنه يتوضأ وضوءه للصلاة، ثم يفيض الماء على رأسه ثلاث مرات حتى يُروى، ثم يغسل سائر جسده، ويبدأ بالشق الأيمن منه قبل الأيسر؛ لقول النبي ﷺ للنساء اللاتي كن يغسلن ابنته قال: «**ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها**»(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل، رقم(١٦٧)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في غسل الميت، رقم(٩٣٩) [٤٢].

فإذا كنت تحت الصنبور وهو يصب على رأسك وأنت تريد أن تغتسل، فإذا غسلت رأسك وأرويته فابدأ بغسل الجانب الأيمن من الجسد قبل الأيسر، هذا هو السنة.

كذلك في التيمم، ولكن التيمم جاءت به السنة؛ أن الإنسان يمسح وجهه بيديه جميعًا ثم يمسح كل واحدة بالأخرى، فلا يظهر فيها التيامن؛ لأن التيمم في عضوين فقط؛ في الوجه والكفين، وإذا كان في الوجه والكفين، فالوجه يمسح مرة واحدة، والكفان يمسح بعضهما ببعض.

كذلك لبس الثوب والنعل والخف والسراويل، كل هذه يبدأ فيها باليمين، إذا أردت أن تلبس الثوب فأدخل اليد اليمنى في كمها قبل اليد اليسرى، وفي السراويل أدخل الرجل اليمنى في كمها قبل أن تدخل الرجل اليسرى، وفي النعل إذا أردت أن تلبس البس الرجل اليمنى أدخلها في النعل قبل اليسرى، كذلك في الخف والجورب، ابدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى، هذه هي السنة كما جاءت عن النبي ﷺ.

وكذلك دخول المسجد تبدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى تقصد ذلك، فإذا أقبلت على المسجد فانتبه حتى تكون رجلك اليمنى هي الداخلة الأولى.

كذلك أيضًا السواك إذا أراد الإنسان أن يتسوك فيبدأ بالجانب الأيمن قبل الأيسر.

وكذلك الاكتحال إذا أراد أن يكتحل يبدأ بالعين اليمنى قبل اليسرى.

كذلك تقليم الأظفار يبدأ بالأيمن قبل الأيسر، فيبدأ مثلاً في اليمنى بالخنصر، ثم البنصر، ثم الوسطى، ثم السبابة، ثم الإبهام، وفي اليد اليسرى يبدأ بتقليم الإبهام، ثم السبابة، ثم الوسطى، ثم البنصر، ثم الخنصر، ويبدأ أيضًا بالقدم اليمنى في تقليم أظافرها قبل القدم اليسرى.

كذلك في قص الشارب ابدأ بالجانب الأيمن منه قبل الأيسر.

كذلك نتف الإبط وحلق الرأس، نتف الإبط سنة، فإذا أردت أن تنتف الآباط يعني تنتف الشعر، فابدأ بالإبط الأيمن قبل الأيسر، وكذلك في حلق الرأس ابدأ بالجانب الأيمن من الرأس قبل الأيسر.

وكذلك أيضًا السلام من الصلاة يلتفت الإنسان عن يمينه قبل أن يلتفت على يساره.

وكذلك الأكل والشرب فيأكل بيمينه ويشرب بيمينه، ولا يجوز أن يأكل بشماله أو يشرب بشماله؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك

وقال: «إن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»[١].

فإذا رأيت رجلين أحدهما يأكل باليمين ويشرب باليمين، والثاني يأكل بالشمال ويشرب بالشمال، فالأول على هدي النبي ﷺ والثاني على هدي الشيطان، وهل يرضى أحد من الناس أن يتبع هدي الشيطان ويعرض عن هدي محمد ﷺ؟! لا أحد يريد ذلك أبدًا، لكن الشيطان يزين للناس الأكل بالشمال والشرب بالشمال، وربما بعض الناس يظن أن هذا تقدم وحضارة؛ لأن الغربيين الكفرة يقدمون اليسار على اليمين، ولهذا يجب على الإنسان أن يأكل باليمين وأن يشرب باليمين إلا للضرورة.

ويجب علينا أيضًا أن نعلم أولادنا الصغار أن يأكلوا باليمين ويشربوا باليمين، كذلك المصافحة يصافح باليمين ولا يصافح باليسار، فإن مد إليك يده اليسرى للمصافحة فلا تصافحه، اهجره لأنه خلاف السنة، إلا إذا كانت اليد اليمنى شلّاء لا يستطيع أن يحركها فهذا عذر.

كذلك استلام الحجر الأسود ـ وكذلك استلام الركن اليماني يكون باليمين، واستلام الحجر الأسود والركن اليماني أن تمسح

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها، رقم(٢٠٢٠).

عليهما وهنا تمسح باليمين ونحن نرى الآن بعض الطائفين يمسح باليسرى.

والغالب أن هذا جهل منهم فإذا رأيت أحدًا يمسح الركن اليماني أو الحجر الأسود باليد اليسرى؛ فقل هذا ليس من الإكرام، ليس من إكرام بيت الله أن تمسح الركن اليماني أو الحجر الأسود باليد اليسرى؛ بل امسحهما باليد اليمنى.

كذلك الخروج من الخلاء، يعني إذا دخلت الحمام لقضاء الحاجة من بول أو غائط ثم خرجت؛ فقدم الرجل اليمنى؛ لأن خارج الخلاء أحق بالتكريم من الخلاء، فإذا خرجت فابدأ بالرجل اليمنى.

كذلك الأخذ والإعطاء وغير ذلك؛ الأخذ والإعطاء يعني إذا أردت أن تناول صاحبك شيئًا، فناوله باليمنى، وإذا أردت أن تأخذ منه شيئًا ناولك إياه فخذه باليمنى.

هذه أخلاق الإسلام، لكن بعض الناس يناولك باليسار ويأخذ منك باليسار، ظنًّا منه أن هذا هو التقدم؛ لأن الكفرة يأخذون باليسار ويعطون باليسار، وسبحان الله العظيم، أصحاب الشمال لهم الشمال؛ لأن الكفرة هم أصحاب الشمال، والمؤمنون هم أصحاب اليمين، ولهذا تجد الكافر دائمًا يفضل اليسار؛ لأنه أهل اليسار

وأهل الشمال، فهو من أهل اليسار في الدنيا وفي الآخرة والعياذ بالله.

إذًا كل هذه الأمور ابدأ فيها باليمين، وكذلك غيرها مما يقصد به التكريم، كل شيء للتكريم فإنه يبدأ فيه باليمين؛ لأن اليمين أكرم وأفضل، أما اليسار فبالعكس.

ثم ذكر المؤلف أشياء مما يُقدم فيها اليسار؛ كالامتخاط والبصاق، فإنه يكون باليسار.

الامتخاط: يعني إذا استنثر الإنسان ليخرج ما في أنفه من الأذى، فإنه يكون باليد اليسرى، وكذلك لو أراد أن يمسح المخاط، فإنه يكون باليد اليسرى.

وكذلك دخول الخلاء والخروج منه، فعند الدخول يقدم الرجل اليسرى، وأما الخروج منه؛ فقد سبق أنه يقدم الرجل اليمنى.

وكذلك إذا خرج من المسجد؛ فإنه يقدم الرجل اليسرى.

وكذلك إذا أراد أن يخلع النعل، أو أن يخلع الخف، أو أن يخلع الثوب، أو أن يخلع السراويل؛ فإنه يبدأ بإخراج الرجل اليسرى، وتكون اليمنى هي الأولى تنعل واليسرى هي الأولى تخلع.

كذلك الاستنجاء يكون باليد اليسرى، وقد نهى النبي ﷺ أن

يستنجئ الرجل بيمينه[١]؛ لأن اليمين محل الإكرام، ويُؤكل بها ويُشرب بها، فينبغي إبعادها عن القاذورات، وكذلك كل شيء مستقذر، فإنه يكون باليد اليسرى، وأما اليمنى فهي لما يكون فيه الإكرام، ولغيره مما لا إكرام فيه ولا إهانة. فاليسرى تكون للأذى واليمنى لما سواها.

واعلم أن الناس عند ما خرجت الساعات التي تعلق باليد، صاروا يلبسونها باليد اليسار من أجل أن تبقى اليد اليمنى ليس فيها ساعة يتأذى بها الإنسان عند الحركة؛ لأن حركة اليمنى أكثر من حركة اليسرى، ويحتاج الإنسان لحركة اليمنى أكثر، فكانوا يجعلونها في اليد اليسرى؛ لأنك ذلك أسهل ولأنه إذا كانت اليد اليمنى هي التي يكون فيها العمل غالبًا فربما تتعرض الساعة لشيء يضرها، فلذلك جعلوها باليسار.

وقد ظن بعض الناس أن الأفضل جعلها في اليمين بناء على تقديم اليد اليمنى، ولكن هذا ظن ليس مبنيًا على صواب؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتختم بيمينه ويتختم أحيانًا بيساره، وربما كان تختمه بيساره أكثر ليسهل أخذ الخاتم باليد اليمنى من اليد اليسرى.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم(٢٦٢).

والساعة أقرب ما تكون للخاتم فلا تفضل فيها اليمنى على اليسرى ولا اليسرى على اليمنى. الأمر في هذا واسع، إن شئت باليمين وإن شئت باليسار، كل هذا لا حرج فيه.

ثم ذكر المؤلف آيتين من كتاب الله هما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، وهذا يكون يوم القيامة. فإن الناس يؤتون كتبهم أي كتب أعمالهم التي كُتب فيها عمل الإنسان، إما باليمين وإما بالشمال، من أوتي كتابه بيمينه ـ جعلني الله وإياكم منهم ـ فإنه يأخذه فرحًا مسرورًا يقول للناس: انظروا إليَّ. اقرءوا كتابيه، كما نشاهد الآن الطالب إذا أخذ ورقة النجاح صار يريها أصدقاءه وأقاربه فرحًا بها، وأما من أوتي كتابه بشماله فإنه على العكس من ذلك، يتمنى أنه لم يؤت الكتاب فضلاً عن أن يطلع عليه غيره.

أما الآية الثانية التي ذكرها المؤلف فهي قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، فذكر الله سبحانه وتعالى أن الناس يكونون يوم القيامة ثلاثة أقسام: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون، فالسابقون هم المقربون، وأصحاب الميمنة ناجون، وأصحاب المشأمة هالكون، فهم يوم القيامة ثلاث أصناف.

وهم كذلك عند خروج الروح من البدن ثلاثة أصناف. ذكر الله في سورة الواقعة أحوالهم يوم القيامة، وذكر في آخرها أحوالهم عند الاحتضار، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٩].

والمقربون هم السابقون الذين يسبقون إلى الخيرات في كل نوع من أنواع الخير ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١].

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٠ ـ ٩٤]، وهؤلاء هم أصحاب المشأمة والعياذ بالله، فهم المكذبون الضالون، أعاذنا الله وإياكم من حالهم.

وأشار المؤلف رحمه الله في هاتين الآيتين إلى أن أهل اليمين هم أصحاب الفضائل الدائمة في الدنيا وفي الآخرة، ويأتي إن شاء الله بقية الكلام على هذا.

* * *

١/ ٧٢١ ـ عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالَت: كَانَ رسولُ الله ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ في شَأنِهِ كُلِّه: في طُهورِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَتَنَعُّلِهِ. متفقٌ عليه[١].

٢/ ٧٢٢ ـ وعنها رضي الله عنه قالتْ: كانَتْ يَدُ رسول الله ﷺ اليُمْنَى لِطَهُورِهِ وَطَعَامِهِ، وَكَانَتِ اليُسْرَى لِخَلائهِ وَمَا كَانَ مِنْ أذًى. حديثٌ صحيحٌ، رواه أبوداود[٢] وغيره بإسنادٍ صحيحٍ.

الشرح

نقل المؤلف رحمه الله تعالى في باب استحباب تقديم اليمين فيما من شأنه التكريم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في شأنه كله، في شأنه كله أي في جميع أحواله، يعجبه: يعني يسره ويستحسن البداءة باليمين في كل شيء، في طهوره وتنعله وترجله.

في طهوره: يعني إذا تطهر يبدأ باليمين، فيبدأ بغسل اليد اليمنى قبل اليسرى، وبغسل الرجل اليمنى قبل اليسرى، وأما الأذنان فإنهما عضو واحد داخلان في الرأس، فيمسح بهما جميعًا إلا إذا كان لا يستطيع أن يمسح إلا بيد واحدة، فهنا يبدأ بالأذن اليمنى للضرورة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل، رقم(١٦٨)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره، رقم(٢٦٨) [٦٧].

(٢) رواه أبوداود، كتاب الطهارة، باب كراهية مس الذكر باليمين، رقم(٣٣).

وقولها: «**ترجله**»: الترجل يعني تسريح الشعر ومشطه ودهنه، وكان الرسول ﷺ كعادة الناس في ذلك الوقت لا يأخذ رأسه إلا في حج أو عمرة، لكن أحيانًا يأخذ منه وأحيانًا يبقيه، فأحيانًا يكون إلى شحمة أذنيه، وأحيانًا ينزل حتى يضرب على منكبيه، فكان ﷺ يتعاهده بالتنظيف والتسريح والدهن حتى يبقى نظيفًا، لا يكون فيه الغبار ولا القمل ولا غير ذلك مما يستقذر.

وكذلك أيضًا يعجبه التيمن في «تنعله»: أي إذا لبس النعل فإنه يبدأ باليمين قبل اليسار، وإذا خلع يبدأ باليسار قبل اليمين، وكذلك الثوب إذا لبسه يبدأ بإدخال الكم اليمين قبل اليسار، وكذلك السروال يبدأ بإدخال الرجل اليمنى قبل اليسرى، والعكس في الخلع.

وفي الحديث الثاني رضي الله عنها أنها بينت ما كان النبي ﷺ يستعمل فيه اليمين ويستعمل فيه اليسار، فذكرت أن الذي يستعمل فيه اليسار ما كان فيه أذًى، كالاستنجاء والاستجمار والاستنشاق والاستنثار وما أشبه ذلك، كل ما فيه أذًى فإنه تُقدَّم فيه اليسرى، وما سوى ذلك؛ فإنه تُقدَّم فيه اليمنى تكريمًا لها؛ لأن الأيمن أفضل من الأيسر كما سبق، والله الموفق.

* * *

٣/٧٢٣ ـ وعن أم عَطيَّة رضيَ الله عنها أن النبي ﷺ قال لَهُنَّ في غَسْلِ ابْنَتِهِ زَيْنَبَ رضي الله عنها: «ابْدَأنَ بِمَيَامِنِهَا وَمَوَاضِعِ الوُضُوءِ مِنْهَا» متفقٌ عليه[١].

٤/٧٢٤ ـ وعن أبي هُريرة رضيَ الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذَا انْتَعَلَ أحَدُكُمْ فَلْيَبْدأ باليُمْنى، وإذَا نَزَعَ فَلْيَبْدأ بِالشِّمَالِ. لِتَكُنِ اليُمْنى أوَّلَهُمَا تُنْعَلُ، وآخِرَهُمَا تُنْزَعُ» متفقٌ عليه[٢].

٥/٧٢٥ ـ وعن حَفْصَةَ رضيَ الله عنها أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يجْعَلُ يَمِينه لطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَثِيَابِهِ، وَيَجْعَلُ يَسَارَهُ لِمَا سِوَى ذلكَ. رواه أبوداود وغيره[٣].

٦/٧٢٦ ـ وعن أبي هُريرة رضيَ الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا لَبِسْتُمْ، وَإِذَا تَوَضَّأتُمْ، فَابْدَؤُوا بأيَامِنِكُم» حديثٌ صحيح، رواه أبوداود والترمذي[٤] بإسناد صحيح.

٧/٧٢٧ ـ وعن أنسٍ رضيَ الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ أتى مِنًى:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل، رقم(١٦٧)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في غسل الميت، رقم(٩٣٩) [٤٢، ٤٣].

(٢) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب ينزع نعله اليسرى، رقم(٥٨٥٦)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب استحباب لبس النعل في اليمين...، رقم(٢٠٩٧).

(٣) رواه أبوداود، كتاب الطهارة، باب كراهية مس الذكر باليمين...، رقم(٣٢).

(٤) رواه أبوداود، كتاب اللباس، باب في الانتعال، رقم(٤١٤١)، والترمذي، كتاب اللباس، باب ما جاء في القميص، رقم(١٧٦٦).

فَأتَى الجَمْرَةَ فرَمَاهَا، ثُمَّ أتَى مَنْزِلَهُ بِمِنًى، وَنَحَرَ، ثُمَّ قال للحِلاق: «خُذْ» وَأَشَارَ إلى جَانِبِه الأيْمَنِ، ثُمَّ الأيْسَرِ، ثمَّ جَعَلَ يُعْطِيهِ النَّاسَ: متفقٌ عليه[1].

وفي رواية: لمَّا رَمَى الجَمْرَةَ، وَنَحَرَ نُسَكَهُ وَحَلَق: نَاوَلَ الحَلاقَ شِقَّهُ الأيْمَنِ فَحَلَقَهُ، ثمَّ دَعَا أبَا طَلْحَةَ الأنصَارِي رضي الله عنه، فَأعطَاهُ إيَّاهُ، ثمَّ نَاوَلَهُ الشقَّ الأيْسَرَ فقال: «احْلقْ» فَحَلَقَهُ فَأَعْطَاهُ أبَا طَلَحَةَ فقال: «اقسِمْهُ بَيْنَ النَّاسِ».

الشرح

هذه الأحاديث في بيان استحباب البداءة باليمين فيما طريقه التكريم، وتقديم اليسار فيما طريقه الأذى والقذر؛ كالاستنجاء والاستجمار وما أشبه ذلك، فذكر المؤلف عن أم عطية رضي الله عنها، وكانت أم عطية رضي الله عنها من نساء الأنصار، وكان لها أعمال جليلة؛ منها أنها تغسِّل الأموات من النساء، فلما ماتت زينب بنت محمد ﷺ فحضرن ليغسلنها، فقال لهن النبي ﷺ: «**ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها**».

وكيفية تغسيل الميت أن يبدأ أولاً بخلع ثيابه بعد أن يوضع على

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، رقم(١٧٠)، ومسلم، كتاب الحج، باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم. . .، رقم(١٣٠٥).

عورته ما يسترها، ثم يضع الغاسل خرقة على يده فينجيه، يعني يغسل فرجه القبل والدبر حتى ينظفه، ثم بعد ذلك يزيل هذه الخرقة ويغسِّل كفيه كما يتوضأ الإنسان في العادة، ثم يأخذ خرقة مبلولة بالماء، فينظف أسنانه وفمه وينظف منخريه بدلاً عن المضمضمة والاستنشاق، ولا يدخل الماء في فمه ولا في أنفه؛ لأنه إذا فعل ذلك نزل الماء إلى جوفه وربما يخرج فيؤذيهم عند التغسيل، ثم بعد هذا يغسل وجهه، ويديه إلى المرفقين، ويمسح رأسه، ويغسل رجليه، وضوءًا كاملاً.

ثم بعد ذلك يغسل رأسه برغوة السدر، لأنه لابد أن يكون عنده ماء فيه سدر مطحون يضربه بيديه حتى يكون له رغوة، فيأخذ الرغوة ويغسل بها الرأس، ثم يغسل ببقية السدر بقية البدن.

على أن المرأة لا يغسِّلها إلا نساء، حتى أبوها لا يغسلها ولا ابنها ولا أحد من محارمها، إلا النساء أو الزوج.

والرجل لا يغسله إلا الرجال، لا تغسله أمه ولا بنته ولا أحد من النساء إلا زوجته، فالزوج يغسّل زوجته والزوجة تغسِّل زوجها، وما سوى ذلك لا يغسل الذكر الأنثى ولا الأنثى الذكر.

حضرت النساء لتغسيل زينب بنت رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**ابدأن بميامنها**» يعني بالأيمن قبل الأيسر؛ اليد اليمنى قبل اليسرى،

والرجل اليمنى قبل اليسرى، والشق الأيمن قبل الشق الأيسر، و «**مواضع الوضوء منها**»، ففعلن ذلك، وجعلن رأسها ثلاثة قرون، يعني ثلاث جدايل: الجانب الأيمن قرن، والأيسر قرن، ووسط الرأس قرن، وألقينه خلفها، ثم أعطاهن النبي ﷺ حقوه يعني إزاره، وقال: «**أشعرنها إياه**» يعني الففنه على جسدها مباشرة، تبركًا بإزار النبي ﷺ ففعلن ذلك.

والشاهد من هذا قوله: «**ابدأن بميامنها**».

ثم ذكر المؤلف أحاديث فيها معنى ما تقدم، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه في لبس الثوب والنعل، وكذلك حديث حفصة رضي الله عنها، وحديث أبي هريرة الثاني.

ثم ذكر حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، في قصة حلق النبي ﷺ في حجة الوداع. فإن النبي ﷺ في حجة الوداع لما بات بمزدلفة وصلى الفجر، وجلس يدعو حتى أسفر جدًّا ودفع قبل أن تطلع الشمس، ووصل إلى جمرة العقبة وقد ارتفع النهار، وصار للشمس حرارة، فرمى الجمرة يوم العيد.

وذهب ﷺ إلى منزله فدعا بالحلاق فحلق رأسه؛ وأشار ﷺ إلى الشق الأيمن فبدأ الحلاق بالشق الأيمن، وكان النبي ﷺ يتعاهد شعر الرأس، فكان شعر رأسه كثيرًا، فبدأ بالشق الأيمن فحلقه، ثم

دعا أبا طلحة رضي الله عنه الأنصاري وأعطاه شعر الشق الأيمن كله، ثم حلق بقية الرأس ودعا أبا طلحة وأعطاه إياه، وقال: «**اقسمه بين الناس**» فقسمه، فمن الناس من ناله شعرة واحدة، ومنهم من ناله شعرتان، ومنهم من ناله أكثر حسب ما تيسر، وذلك لأجل التبرك بهذا الشعر الكريم؛ شعر النبي ﷺ.

وكون أبي طلحة خصه الرسول بالجانب الأيمن كله يدل على أن من الناس من يختص بخصيصة يخصه الله بها، وإن كان في الصحابة من هو أفضل منه؛ فأبوبكر وعمر وعثمان وعلي وكثير من الصحابة أفضل من أبي طلحة، لكن فضل الله عزَّ وجلَّ يؤتيه من يشاء، وكان الصحابة يتبركون بشعر النبي ﷺ وبثيابه وبعرقه، لكن غيره لا يُتَبرَّكُ بشعره ولا بثيابه ولا بعرقه.

وكان عند أم سلمة رضي الله عنها ـ إحدى زوجات الرسول ﷺ ـ شعرات من شعر الرسول ﷺ، وضعتها في جُلجِل يعني طابوق من الفضة، وجعلته من الفضة تكريمًا لشعر الرسول ﷺ، فكان الناس إذا مرض عندهم مريض جاءوا إليها فصبت على الشعر ماء وحركته به، ثم أعطته المريض فيشفي بإذن الله ببركة شعر النبي ﷺ.

لكن هذا ـ كما قلت ـ ليس لغيره، فإن الصحابة لم يتبركوا بشعر أبي بكر وهو أفضل الأمة بعد الرسول ﷺ، ولا بشعر عمر،

ولا غيره من الصحابة، وكذلك من دونهم لا يُتبرك بشعره ولا بعرقه ولا بثيابه، إنما ذلك خاص برسول الله ﷺ.

والشاهد من حديث أنس أن النبي ﷺ أشار إلى الحلاق أن يبدأ بالجانب الأيمن. فإذا حججت وأردت أن تحلق أو تقصر فابدأ بالجانب الأيمن، وكذلك لو حلقت حلقًا عاديًّا فابدأ بالجانب الأيمن، والله الموفق.

* * *